القوة العسكرية

بدأت قصة الإنسان مع القتال كما ذكرنا فى «البداية» من خلال ثانى خطيئة - بعد خطيئة آدم / حواء - عندما قتل قابيل أخاه هابيل . لقد كانت البداية صراع الأخوة، ثم انتشر القتال ليصبح سمة فى المنظومة البشرية. لقد ذهب القديس أغسطين فى العصور الوسطى فى تحليله اللاهوتى إلى أن ميل البشر للشر راجع إلى الخطيئة الأزلية، وأن الطبيعة العدوانية للإنسان ترتبط بالسقطة من عناية المشيئة الإلهية والتى أنزلت آدم من جنة عدن إلى الأرض.

جاء الفيلسوف باروخ اسبينوزا فى القرن السابع عشر بفكرة وجود صراع هائل داخل الإنسان بين قوى الهوى والقوى العاقلة ، ومن سوء الطالع أن قوى الهوى غالباً ما تنتصر على قوى العقل. إذا كانت الحالة الطبيعية للبشر - فى المجتمعات البدائية - هى حرب يشنها كل آدمى ضد الآدمى الآخر ، كما وصفها الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز فى القرن السابع عشر ، فإن امتلاك القوة خاصة القوة العسكرية غالباً ما يؤدى إلى العدوان.

حتى قبل عصور الحضارات القديمة ، ومروراً بالعصور الوسطى وحتى العصور الحديثة، وتمشياً مع الطبيعة البشرية التى تميل إلى العدوان، وفى منظومة يهتم فيها الإنسان بإشباع شهواته، فإن الدافع الأساسى للإنسان المكبوت داخل غرائزه - وإن تظاهر بعكس ذلك - هو الكسب الشخصى والسعى وراء أطماعه للوصول إلى المجد. كانت القوة العضلية هى الطريق للوصول إلى المجد، على المستوى الفردى حين كان الإنسان لا يملك إلا قوة عضلاته وبعض الأسلحة البدائية من أحجار وأفرع أشجار انتهاءاً باستغلاله لقدرات عقله لتطوير أسلحته ليصل إلى الدمار الشامل.

استخدمت القوة لمواجهة الطبيعة العدوانية للبشر عندما طمع الإنسان فى ملكية الآخر بعد أن تغيرت البيئة الاجتماعية والثقافية بانتقال الإنسان من مرحلة الصيد

العشوائى والبداوة المتنقلة إلى مرحلة إنشاء المجتمعات الزراعية والرعوية والامتلاك، مما تطلب حماية هذه الممتلكات. كان الإنتاج الحيوانى، أو المحصول الزراعى أو إقامة مشروعات هو ثمرة مجهود شهور أو سنين مما تطلب بناء وحدات حربية / عسكرية لصد عدوان الغازين، أو للاعتداء لسلب ممتلكات الآخرين إذا واجهت قبيلة ما، أو مجتمع ما خطر المجاعة. اضطرت المجتمعات الصغيرة إلى الاندماج معاً لتكوين شعب كبير العدد، وكيان قوى ثم دولة ، بغرض العدوان أو لصد العدوان. وسار التاريخ على نهج : المجتمعات الأقوى والأفضل تنظيماً تبتلع المجتمعات الأضعف والأقل تنظيماً، واجتاحت الثقافات الأميل للحرب المجتمعات المسالمة . كان الاتجاه التاريخى دوماً يميل إلى خلق المجتمع القوى ثم الدولة القوية، وغدت الحرب وباء له مزاياه وله عيوبه، فمن خلال الحرب تتطور فنون الحرب والعلوم المرتبطة بالعمليات العسكرية ، أما عيوب الحروب فتتمثل فى القتل والتدمير. الحرب هى عمل من أعمال العنف، أو صدام بين قوى متنازعة يستهدف إكراه الخصم على المثول لإرادتنا وتنفيذ قرارنا . كانت ومازالت أهم أسباب نشوب الحروب:

- أسباب مغروزة فى الجينات ، مثل غريزة العدوان، وغريزة الموت، وما يقابلها فى غريزة الخنوع والاستسلام.

- أسباب عقائدية / دينية ، أو الحروب المقدسة ، مثل الحروب الصليبية، والصراع العربى/ الإسرائيلى.

- أسباب اقتصادية : من الحصول على موارد المواد الخام (منتجات زراعية وتعدينية) ، وموارد الطاقة (بترول ، فحم، . . إلخ).

- تجارة السلاح حيث تقوم بعض الدول والشركات المعنية بتجارة السلاح بتفجير الصراعات من أجل تزويد أطراف الصراع بالسلاح.

- أسباب استراتيجية / جغرافية : مثل التوسع الجغرافى باحتلال أراضى جديدة، وتأمين خطوط المواصلات (قناة السويس، وقناة بنما).

- أسباب سياسية حيث يقوم بعض الحكام أو بعض الحكومات بإشعال نزاع من أجل إلهاء الشعب فى صراع وحروب لا فائدة منها ، وذلك للتغلب على مشاكلها الداخلية ، أو قمع ثورات أو تمرد داخلى .

كان المفكر الصينى «سون تسى» والذى عاش منذ حوالى ألفين وخمسمائة سنة فى مقاطعة شاندونج بالصين، هو أول من وضع استراتيجيات للحروب فى أول كتاب كتب فى فنون الحرب أسماه «فن الحرب» . كتب سون تسى : « إن التفوق فى الحرب يعتمد على المعرفة فى وقت مبكر . لا تأتى المعرفة من الخيالات والأحلام، ولا من أخذ العبرة من أحداث الماضى، ولا من أية حسابات استنتاجية ، بل تتأتى من المعرفة بأحوال العدو عن طريق الجواسيس . يمكن إرسال الجواسيس إلى العدو أو تجنيدهم من أبناء وطن العدو، على أن يجزل لهم العطاء ويعاملون بسخاء لتشجيعهم على قبول المخاطرة. يوجد نوع آخر من الجواسيس يسمون الجواسيس المضللة وهم الذين يزودون العدو بمعلومات خاطئة» .

فى جزء آخر فى كتاب «فن الحرب» كتب سون تسى عن كيفية التنبؤ بنتيجة الحرب، وذلك من خلال تحليل سبعة عوامل وخصائص أساسية وهى :

١ - القيادة العليا من المنظور الأخلاقى والمعنوى .

٢ - كفاءة القادة .

٣ - ظروف الأرض (التضاريس) ، والمناخ .

٤ - تنفيذ القرارات على الوجه الأكمل .

٥ - التفوق فى السلاح والعتاد .

٦ - تدريب الضباط والجنود .

٧ - الصرامة والحيادية فى تقدير المكافآت والعقاب .

من النصائح الهامة التى أوردها «سون تسى» فى كتابه، وسار على هداها الكثير من القادة العسكريين حتى وقتنا هذا : «تعتمد جميع الحروب على الخدعة. حين

تكون قادراً على الهجوم فلابد أن تتظاهر بعدم القدرة على ذلك، وحين تهم بالتعبئة فلابد أن تبدو غير مكترث، وحين تود الاقتراب لابد أن تشعر الآخرين بأنك بعيد. قدم طعماً لاستدراج العدو ، وعند طمعه فى مكسب صغير أضربه الضربة القاضية قبل أن يتوازن من جديد. إذا كان مدججاً بالسلاح رغم تلك الضربة فضاعف من احتياطاتك . إن كان قوياً حاول المراوغة وتجنبه، وإن كان ثائراً حاول تثبيط همته . إذا تظاهر بالخنوع والذل ازرع فيه الغطرسة والتكبر. إذا ما أخذت قواته قسطاً من الراحة يجب أن ترهقه بالهجمات المتلاحقة ، وإذا ما توحدت شتتها. باغت العدو فى حالة ارتباكه ، أي هاجم فى الوقت الغير متوقع. من مهارات الحرب أن تجبر العدو على ملاقاتك فى المكان والزمان اللذان يلائمانك».

الحيلة والخدعة : تعنى وجود نية مستترة ، فالتصريحات والأخبار الكاذبة، والأوامر والخطط المزيفة التى تنتشر بهدف إيصالها للعدو تعتبر من خدع الحروب. تعتبر الحيلة والخدعة عنصراً لا يستهان به فى الحروب منذ قديم الزمان وحتى وقتنا الحالى. وقد استطاع رئيس مصر أنور السادات استخدام الخديعة بمهارة فى التمويه على استعداد مصر للحرب والتغطية على ميعاد بدء حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ فكانت مفاجأة الحرب للعدو، فاستغلت القوات المسلحة العسكرية مبدأ المبادرة والبدء بالهجوم.

أورد «سون تسى» فى كتابه «فن الحرب» خمسة أخطاء رئيسية يمكن أن تؤثر على القائد العسكرى، وبالتالى يمكن أن تغير موازين الحرب:

- إذا كان القائد متهوراً يمكن قتله.
- وإن كان جباناً يمكن أسره.
- وإن كان حاد المزاج يمكن أن يستثار غضباً ويخطىء.
- وإن كان مرهفاً ذا إحساس متضخم بالذات والكرامة ، يمكن استفزازه بالإهانة.

- وإن كان ذا طبيعة رحيمة فقد يضطرب ولا يمكنه السيطرة على مجريات الأمور.

إذا كانت إدارة الحرب قديماً فن وموهبة ، فقد تحولت الآن إلى علوم عسكرية تدرس فى الكليات العسكرية وفى المعاهد المتخصصة. يمكن تقسيم إدارة الحرب إلى أربعة مستويات وهى:

١ - التخطيط المتكامل Integrated Planning : أي التخطيط الشامل المتكامل للحرب ، بداية من الاستراتيچية العامة من هجوم أو دفاع، إلى تأثير مدة الحرب على الاستعدادات ، وتحليل جميع العناصر التى تؤثر على كل الأطراف المشتركة فى الحرب، ودراسة أنواع الأسلحة التى قد تستخدم فى المعارك.

٢ - اللوجستيك Logistics : أو فن تحريك القوات المسلحة إلى أرض المعركة. ويحتوى هذا المستوى على دراسة طرق المواصلات، وتأثير جغرافيا الأرض، وتأثير المناخ على عمليات نقل القوات المحاربة.

٣ - التكتيك Tactics : ويعنى فن إدارة القوات على أرض المعركة. من حشد للقوات وتحريكها على أرض المعركة.

٤ - الاستراتيچية Strategy : وتعنى الخطط الحربية ، من توقيت الهجوم، وطرق الدفاع، وعمليات التمويه، والاستغلال الأمثل للإمكانيات المتاحة.

وكلمة الاستراتيچية تشتق من الكلمة اليونانية Stratos بمعنى حشد أو جيش. من مشتقات هذه الكلمة Strategia التى قد تعنى حملة عسكرية، أو قيادة ، أو رتبة جنرال، ومن مشتقاتها أيضاً كلمة Strategama بمعنى الخدعة أو الحيلة . أما كلمة تكتيك Tactick فهى مشتقة من كلمة يونانية بمعنى النظام، وهى تعنى فى مفهوم العمليات العسكرية بعملية القتال الفعلى أو إدارة المعركة، بينما تعنى كلمة الاستراتيچية كل شىء يقع فى الحرب، قبل الالتحام الفعلى وبعده. إن الهدف من التكتيك والاستراتيچية كما وردا فى كتاب «حرب المستقبل» : « الهدف من التكتيك

هو العمل على أن تسير العملية القتالية على أحسن وجه من أجل إحراز أفضل نتيجة، أما هدف الاستراتيچية فهو العمل على تهيئة أنسب الظروف للقتال ثم استغلال نتيجته بالشكل الأمثل بمجرد انتهاء العمليات العسكرية . فالمخطط الاستراتيچى يجهز للعنف ويستعمله ويستثمره ولكنه لا يمارسه» . عندما تلوح البوادر الأولى لأى نزاع مسلح ، فإن الإعداد له ينقسم فى المعتاد إلى قسمين ، الأول يتعلق بالعنصر البشرى من جمع الأفراد وتهيئة أذهانهم للأستعداد للقتال ثم تعليمهم الانضباط وتدريبهم ، وشحذ هممهم القتالية وتوزيعها وصيانتها وتجهيزها بصفة عامة للاستخدام ، والثانى يختص بالمعدات والعتاد من جميع أنواع الأسلحة المتاحة.

يشتمل التطور فى المجال العسكرى الاهتمام بالجندى كمقاتل صالح للقتال، وكذلك الاهتمام به كإنسان. يجب توافر ثلاث كفاءات فى الجندى حتى يصبح مقاتل على مستوى عال، الأولى تتصل بكفاءته البدنية عن طريق التدريبات الرياضية، والثانية بكفاءته الفنية والعقلية من خلال دراسة العلوم الحديثة فى الرياضيات وبحوث العمليات والعلوم وخلافة، والثالثة هى الكفاءة المعنوية . إن الصفات المعنوية اللازم توافرها فى الجندى تتخلص فى : الإيمان بالوطن وبقضيته التى يقاتل من أجلها ، والعزيمة والرغبة فى هزيمة العدو، والضبط والربط الذاتى أي الطاعة عن رضا وإخلاص وأداء الواجب كاملاً عن رغبة وبدون رقابة، والقدرة على العمل فى فريق والاندماج فى الجماعة، والإخلاص والتفانى فى العمل والإحساس بالمسئولية ، والقتال بشجاعة وإقدام، والتضحية بالنفس وإنكار الذات، وأخيراً التمسك بالكرامة والتحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق.

إذا كانت الحروب التقليدية هى حروب أفراد ومعدات ، تلزمها تكتيك واستراتيچية ، فإن العقل البشرى التدميرى لم يستكف بقوى التدمير التقليدية ، فاتجه إلى أسلحة الدمار الشامل: النووية، والكيمياوية والبيولوچية لضمان أكبر قدر من الدمار والفناء، ولينحدر إلى أقل قدر من القيم والأخلاق، متباعداً عن الروح

الإنسانية والرحمة . اتجه القوى إلى الحروب التقليدية وغير التقليدية، واتجه الضعيف إلى حرب العصابات وإلى الإرهاب والاغتيالات. وبين القوة والضعف، خفت ضوء الحق، وتاهت المعايير بين عقائد وإيدلوجيات ، وبين نهم شهوة السلطة والجنس، وجشع المال والمادة، وحب سيطرة القوى. عانى الضعيف والفقير المسالم، فنادى بنزع السلاح بعد حربين عالميتين تكبد فيهما البشر خسارة الملايين من الأفراد ما بين قتلى وجرحى، والبلايين من الأموال، وتدمير المنشآت من مبانى وبنية أساسية. لقد نادى من قبل الرسل والأنبياء بالسلام والحب والمودة، وآمن الكثير من الناس بالأديان ولكن الصراع لم يتوقف والقتال لم ينتهى ، ومازال مسلسل الحرب والدمار مستمر.

الحرب النووية:

استخدمت القنابل الذرية للمرة الأولى - بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية - فى نهاية الحرب العالمية الثانية فى مدينتى هيروشيما ونجازاكى فى اليابان. يوجد نوعان رئيسيان من القنابل النووية، أولهما القنابل الذرية والتى يحدث فيها انشطار فى الذرات مما تسبب فى تحرير طاقة مدمرة، وثانيهما القنابل الهيدروجينية والتى يتم فيها عمليات الاندماج النووى الذى ينتج عنه طاقة هائلة خلال فترة زمنية قصيرة، تتميز بدرجات حرارة عالية قد تصل إلى الملايين من الدرجات المئوية كما تسبب فى ضغط شديد يفوق ملايين المرات الضغط الجوى، وتسبب ارتفاع درجات الحرارة وارتفاع الضغط، ووفاة الكائنات الحية فى محيط التفجير. كما تسبب الإشعاعات الناتجة من الانفجار (الأشعة السينية ، وأشعة جاما، وأشعة بيتا، والأشعة النيترونية) تأثير ضار على الكائنات الحية يمتد لسنوات طويلة.

لم يساعد امتلاك القنبلة الذرية فى تغيير موازين القوى، فمنذ أن أُستخدمت لأول مرة فى اليابان لم تستعمل مرة ثانية حتى الآن. لا تمكنت الصين التى تمتلك قدرات نووية على استعادة فرموزا ، أو معاقبة جارتها فيتنام ، ولا استخدمتها الهند فى صراعها مع باكستان، أو فى حل مشكلة الانفصاليين التاميل. ولا استطاعت

بريطانياً استعادة مكانتها كقوة عظمى سابقاً. لقد أيقن الجميع مأساة الدمار الشامل الذى تسببه القنابل النووية، واستمرار الضرر على عدة أجيال، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية خاصة فى العقد الأخير شن حرب سياسية ضد بعض الدول النامية التى تطور قدراتها النووية عسكرياً مثل كوريا الجنوبية، وإيران والعراق وليبيا، ملوحة بسياسة العصا والتدخل العسكرى.

الحرب الكيماوية:

استعملت الغازات السامة لأول مرة فى الحرب العالمية الأولى فى مدينة ايبر البلجيكية فى أبريل من عام ١٩١٥ عندما أطلق الجيش الألمانى غاز الكلور على جنود الحلفاء ونتج عن ذلك إصابة حوالى خمسة عشر ألف من جنود الحلفاء ومقتل خمسة آلاف، ثم استعمل الألمان غاز الخردل عام ١٩١٧ . تنقسم العوامل السامة أو الغازات السامة إلى أنواع عديدة منها :

* **العوامل الخانقة أو الغازات الخانقة** Choking Agents :

مثل غاز الكلور والفوسجين ، وهى التى تؤثر على الجهاز التنفسى للإنسان، وتسبب التهابات القصبة الهوائية وأضرار شديدة بالرئتين ، وتلف الشعب الهوائية كما تؤدى إلى الاختناق.

* **غاز الأعصاب** Nerve Gases :

مثل السارين والسومان، والتى تؤثر على عمل أنسجة الجسم ، وتؤدى إلى تجمع خميرة الأستيل كولين على نهايات الأعصاب مما يؤثر على التنفس والجهاز البصرى والأطراف.

* **الغازات التى تؤثر على الدم** Blood Agents :

مثل سيانيد الهيدروجين وكلوريد السيانوجين، والتى تؤثر على تبادل الأكسوجين بين الدم وخلايا الجسم.

* **الغازات المنفطة** Blistering Agents :

مثل غاز الخردل، وهى الغازات التى تسبب الطفح الجلدى، والحروق ، والبثور، وهدما عاماً لأنسجة الجسم.

* **الغازات المقيئة** Vomiting Agents :

مثل الأدامسايت ، وهى تسبب الشعور بالغثيان والتقيوء، وتسبب السعال والزكام.

* **العوامل المهلوسة** Psychosomatic Agents :

مثل مشتقات حمض الليسرجيك ومركب (بى زد Bz) ، وهى عوامل كيماوية تؤدى إلى شل قدرة الإنسان لمدة محدودة وتعرقل العمليات الذهنية التى تتحكم فى حركة أعضاء الجسم، كما تسبب الهلوسة.

* الغازات المسيلة للدموع Tear Gases :

والتى تسيل الدموع مع ألم حارق فى العين.

تم الاتفاق على حظر استخدام الغازات السامة، ووضع بروتوكول جنيف فى ١٩٢٥/٦/١٧ تحت عنوان «حول حظر استخدام الغازات الخانقة والسامة وما شابهما» ، وكذلك حظر استخدام المواد الجرثومية فى الحرب. انضمت إلى البروتوكول مئة وثلاث دول، بينما تأخر انضمام الولايات المتحدة الأمريكية إلى عام ١٩٧٥ ، ويلزم البروتوكول الدول الموقعة عليه بحظر استخدام الغازات الخانقة والسامة ووسائل الحرب الجرثومية.

جاء فى كتاب «الحرب الكيماوية» الذى صدر عام ١٩٩٩ ، أن هناك نحو خمس عشرة دولة على الأقل تمتلك أسلحة كيميائية، وأن هناك إحدى وثلاثين أخرى لديها إمكانيات تصنيع هذه الأسلحة. يقسم أعضاء الأسلحة الكيميائية إلى ثلاثة أقسام:

- أعضاء من المؤكد امتلاكهم لهذه الأسلحة : مثل الولايات المتحدة، وروسيا، وفرنسا، والعراق (قبل غزوها عام ٢٠٠٣) وإسرائيل.

- أعضاء غير مؤكد امتلاكهم لهذه الأسلحة مثل مصر، وسوريا ، وليبيا، وأثيوبيا، وبورما، وتايلاند، والصين، وتايوان ، وكوريا الشمالية، وفيتنام.

- أعضاء يبحثون امتلاك هذه الأسلحة مثل إيران، وكوريا الجنوبية.

الحرب البيولوجية :

سلاح آخر من أسلحة الحرب يفوق تأثيره وأذاه وسعة انتشاره جميع الأسلحة الأخرى عن طريق استخدام الحميات الراشحة والفيروسات. هذا السلاح ذو حدين فقد يصيب الصديق والعدو على حد سواء، فاتجاهات الانتشار يصعب التحكم فيها. أن الفيروسات والجراثيم التى يمكن استعمالها فى الحرب البيولوجية كثيرة ولكن يمكن سرد أهمها فى : التولارميا، البروسيلا، الطاعون الرئوى، الجمرة الخبيثة، والحمى القرمزية، والتهاب الدماغ، والنخاع الشوكى، الجدرى، التيتنوس، الحمى الصفراء، الكوليرا. . . إلخ.

يتم قذف ونشر الجراثيم والفيروسات عن طريق :

١ - الايروزول (الرذاذ)، والإيروزول البيولوجى هو دقائق تحتوى على ميكروبات حية أو سموم والتى تنشر الميكروبات فى وسط هوائى. ويمكن قذف الأيروزول برشه من الطائرات أو القذائف الموجهة أو بالتفجير بواسطة القنابل أو بالطرق الميكانيكية مثل استخدام صنبور يعمل تحت ضغط ، ومولد آلى.

٢ - أسراب الحشرات مثل البعوض والذباب والفئران والتى تحمل العامل البيولوجى.

٣ - نشر العوامل البيولوجية فى الطعام والماء.

حرب العصابات Guerrilla Warfare :

نوع آخر من الحروب يختلف عن الحرب النظامية أو الحرب التقليدية وهى حرب العصابات. لحرب العصابات خصائصها وأهدافها التى تتميز بها عن غيرها من الحروب، فهى السلاح الذى تستخدمه البلاد الفقيرة ، الضعيفة فى سلاحها ومعداتها العسكرية ضد معتدى أو غاز أقوى منها.

تقوم حرب العصابات على قاعدة «اصب الهدف واهرب» أي تجنب أي اشتباكات قد تؤدى إلى وقوع خسائر. إن الضربات السريعة والمؤثرة تترك أثراً فى قدرة العدو وتفقده الكثير من الروح المعنوية. من مبادئ هذا النوع من الصراع أنه يتكون من مجموعات صغيرة متفرقة، قد يكون عليها - إن دعت الحاجة - أن يتجمع بعضها للقيام بعملية أكبر.

تكون المناطق الوعرة أو الغابات هى أكثر المناطق صلاحية لهذا النوع من الحروب بينما لا تعد الأرض الصحراوية مناسبة لانفتاحها وكشوفها أمام العدو. إن نجاح حرب العصابات يعتمد على موقف الشعب فى مناطق العمليات، وعلى استعداد هذا الشعب فى تزويد رجال العصابات بالمعلومات والمؤن والتمويه وإخفاء هؤلاء الرجال وقت اللزوم.

قبل تدريب رجال العصابات عسكرياً يجب أن يتم تأهليهم عقائدياً ، أي تشكيل مقاتل واعى من الناحية السياسية، كثير الولاء لما يقاتل من أجله . إن قادة حروب العصابات يقضون وقتاً أطول فى التنظيم والتثقيف والتحريض وأعمال الدعاية من الوقت الذى يقضونه فى القتال، وذلك لكسب عامة الناس إلى صفهم. شبه الزعيم الصينى ماوتسى تونج أفراد حرب العصابات بالسمك، كما شبه الناس بالماء الذى يسبح فيه السمك ، فكلما كان المناخ الأيدلوجى أو العقائدى ملائماً فإن السمك سيعيش ويتكاثر مهما كان عدده قليلاً فى البداية ، فيجب الاهتمام أولاً بالمناخ المناسب الذى سوف يتشكل ويتكاثر فيه أفراد حرب العصابات . يتم تجهيز المناخ الملائم بتدريب باكورة المتطوعين وتثقيفهم عقائدياً، ثم ينتشر «الدعاه»

والمهيجون من قواعد التدريب الإقليمية فراداً أو فى مجموعات صغيرة لإقناع مزيد من الأفراد، وجذب التأييد المطلوب من عامة الناس فتصبح الحركة ذات شعبية وجماهيرية . تتميز المرحلة الأولى بالطابع (التنظيمى السرى والتآمرى) . فى المرحلة التالية يبدأ ضم المزيد من العناصر المؤيدة، فتتضاعف أعمال الإرهاب والتخريب، ويتم فى هذه المرحلة أيضاً تصفية المتعاونين مع العدو / الطرف الآخر . فى هذه المرحلة أيضاً تتم عمليات تجميع السلاح والمعدات وغيرها من المواد الأساسية مثل المواد الطبية ، والغذائية وأجهزة الاتصالات.

إذا كانت المرحلة الأولى هى مرحلة التجهيز والتنظيم، والمرحلة الثانية هى مرحلة التوسع التدريجى وتثبيت الأقدام، فتأتى المرحلة الثالثة لتحويل النظام الفردى أو نظام المجموعات الصغيرة إلى كيان منظم وراسخ قادر على الاشتباك مع العدو/ الطرف الآخر فى معارك تقليدية . قد تعقد مساومات ومفاوضات مع الطرف الآخر أحياناً بقصد تحقيق خطة استراتيجية مثل كسب الوقت لدعم عسكرى أو سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى، أو لإنهاك الطرف الآخر وبعث اليأس فى نفوس أطرافه. يعتبر نظام المخابرات من العناصر الهامة فى حرب العصابات، لتجميع البيانات والمعلومات عن الطرف الآخر: من معدات وتموين ومعنويات، وأفراد، وخطط. من جهة أخرى تمنع عن الطرف الآخر وصول أى معلومة فيصبح نظام حرب العصابات محاطاً بسياج منيع أو ضباب كثيف من الصعب اختراقه أو النفاذ إلى ما داخله. إن مزايا حرب العصابات المفاجأة والمبادرة ، فالعمليات الانتحارية / الهجومية تقع فى المكان والزمان اللذين لا يتوقعهما الطرف الآخر.

شرح كتاب «حرب العصابات» الأسلوب الذى يجب أن يتبعه قائد حرب العصابات :« على قائد حرب العصابات أن يختار أسلوب التظاهر بالهجوم فى الشرق، ليوجه هجومه من الغرب، وعليه أن يتجنب المواقع الحصينة، وأن يهاجم المواقع الضعيفة ، وأن يهاجم ثم ينسحب ، ثم يوجه ضربة صاعقة، وينشد قراراً سريعاً كالبرق . وعلى العصابات عندما تشتبك مع عدو أقوى منها أن تنسحب

عندما يتقدم وأن تواصل الضغط عليه عندما يتوقف ، وأن توجه الضربة إليه عندما يتعب، وأن تطارده عندما ينسحب ، وتمثل مؤخرة العدو وجناحاه وغير ذلك من النقاط الضعيفة، المراكز الحساسة فى خطط حرب العصابات الاستراتيجية ولذا يجب الضغط عليه فيها، ومهاجمتها، وتبديد صفوفها، وإنهاكها وابادتها».

الألغـــام:

تستخدم الألغام كوسيلة لمجابهة القوات المعادية الأرضية والبحرية. استخدمت الألغام المضادة للأشخاص لأول مرة فى معركة السوم عام ١٩١٦ ، وظهرت ألغام ضد الدبابات خلال الحرب العالمية الأولى من قبل الألمان، كما استخدم الفرنسيون والبريطانيون حقول الألغام Mine Fields المعدة قبل المعركة مسبقاً وبكثافة وأعماق كبيرة، حتى وصل ما زرع فى معركة العلمين فى شمال غرب مصر أثناء الحرب العالمية الثانية إلى حوالى خمسة ملايين لغم. تعتبر حرب فوكلاند بين بريطانيا والأرجنتين والتى اندلعت عام ١٩٨٢ أحدث تجربة مرت بها حرب الألغام البرية والبحرية. لقد مارست وحدات الهندسة العسكرية الأرجنتينية واجباتها فى زرع وكسح الألغام، وأظهرت تفوقاً واضحاً على الجانب البريطانى فى الأيام الأولى من الحرب قبل أن تحدد القوات البريطانية مواقع حقول الألغام ونوعيتها، وقبل أن تحصل على كاشفات ألغام متطورة لمعالجتها. واللغم هو مفرقع بغلاف خارجى معدنى أو خشبى أو بلاستيكى مجهز بوسيلة إشعال، مصمم لتدمير أو تخريب الدبابات والعجلات الحربية، والقطع البحرية، والطائرات، وقتل وجرح الأفراد. ينفجر اللغم بتأثير خارجى كمرور الأشخاص أو الحيوانات أو العجلات عليه، أو بواسطة أجهزة سيطرة عن بعد، أو عن طريق برمجته للانفجار فى وقت معين.

اللـيزر:

حقق العلماء إنجاز علمى حول منتصف القرن الماضى بإنتاج شعاع ضوئى مركز عن طريق تضخيم الموجات الضوئية، ومن ذلك أخذ الليزر اسمه المختصر LASER المكون من الأحرف الأولى لمعناه : Light Amplification by Stimulated

Emission and Radiation .أشعة الليزر هى أشعة ضوئية كهرومغناطيسية شبيهة بموجات اللاسكى والرادار ، تتميز عن أشعة الضوء العادى بأنها أشعة أحادية التردد، تسير فى خطوط مستقيمة متوازية يقوى كل شعاع منها الآخر ويدعمه ، الأمر الذى ينتج عنه فى النهاية طاقة هائلة يجعلها تتميز بخاصية النفاذية، وقدرتها على اختراق الفضاء لمسافات شاسعة بلغت حتى الآن مئات الآلاف من الكيلو مترات، وكذلك اختراق أشد المواد صلابة وإحداث ثقوب دقيقة بها لا تتعدى جزء من مائة من المليميتر.

تم الحصول على الليزر بطريقتين ، أولهما الاستثارة الكهربية لذرات غاز مثل النيون، والطريقة الأخرى وهى طريقة نيومان، يتم فيها استثارة ذرات بعض المواد بواسطة الأشعة فوق البنفسجية . من أمثلة هذه المواد عنصرى النيوديميوم والهوليوم والبلورات الصناعية لأكسيد الألمونيوم المضاف إليه الكروم. باستثارة ذرات المادة، غازية أم صلبة، وبإمرار موجة كهرومغناطيسية فى هذا الوسط ذات تردد يتفق والخط الطيفى للمادة المستثارة الموضوعة بين عواكس متوازية، فإن ذرات المادة المستثارة تفرغ طاقتها فى الموجة الضوئية المارة بها، فتتعاظم طاقة الموجة الضوئية على النحو الذى تتميز به أشعة الليزر. يتم إنتاج أشعة الليزر فى صورة مستمرة، أو على شكل نبضات متقطعة لحظية ، طبقاً للتجهيز العملى لإنتاج الليزر، والذى تحكمه طبيعة المادة والأسلوب الذى يتم عن طريقه استثارتها، بالوميض الضوئى أو القصف الإلكترونى أو التفريغ الكهربى.

أفادت الأبحاث فى مجال الليزر البشرية ، وذلك باستغلال الخصائص المميزة والفريدة لهذه الأشعة ، حيث أمكن الحصول على حزمة ضيقة جداً، محددة المسار وذات قوة تركيز عالية وطاقة هائلة الشدة. أمكن استغلال هذه الخواص فى مجالات قطع ولحام السبائك المعدنية ذات الصلابة العالية مثل الصلب والتيتانيوم، وثقب أشد المواد صلابة مثل الماس بإحداث ثقوب شعرية دقيقة. يمكن أيضاً استخدام أشعة الليزر فى مجال المواصلات السلكية واللاسلكية بإحلاله محل الكابلات التليفونية

وفى أداء الاتصالات اللاسلكية. باستطاعة الليزر نقل المعلومات وبذلك يمكن رفع سرعة وكفاءة الحاسبات الآلية. فى المجال الطبى يستطيع الجراحون الآن إجراء العمليات الجراحية الدقيقة فى الأماكن الحساسة فى جسم الإنسان مثل شبكية العين، وحول شبكة الأعصاب، واستئصال الأنسجة فى وقت قصير دون حدوث نزيف أو مضاعفات.

أما فى المجال العسكرى فقد وجه العلماء العسكريين جهودهم لتسخير قوى أشعة الليزر فى رفع كفاءة معدات الحرب وأسلحة الدمار الشامل. استخدمت أشعة الليزر فى أجهزة الردار وأجهزة تقدير المسافات، فارتفعت كفاءة الرصد فى هذه الأجهزة إلى درجات عالية من الدقة. يستخدم الليزر أيضاً فى عمليات القصف الجوى الموجه بالقذائف المزودة بالليزر. على المستوى التكيتكى ، استطاعت صناعة السلاح فى الولايات المتحدة الأمريكية من إنتاج سلاح فردى مثل البندقية ، تنطلق منه عند الضغط على الزناد، أشعة ليزر قاتلة تصيب الهدف بدقة بالغة وحتى مسافة تزيد على الكيلو متر، وهذا السلاح خفيف الوزن ويطلق من الكتف، مزود فيه الدبشك بنظام لتوليد الليزر. وعلى المستوى الاستراتيجى ، قامت الولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء نظام دفاعى كامل من المنصات الفضائية، وصواريخ الدفع البالستيكية ، لتدمير الصواريخ النووية المعادية فى المراحل الأولى لإطلاقها، وذلك بتسليط أشعة الليزر على هذه الصواريخ. وفى النهاية تبذل الدول ذات القدرات العسكرية المتفوقة جهودها لتطوير استخدام أشعة الليزر فى الحروب المتوقعة مستقبلاً، أو فيما يسمى بحرب النجوم.

الأشعة الضوئية غير المرئية:

يرى الإنسان ضوء الشمس - بالعين المجردة - أبيضاً ، ولكن إذا سمحنا لشعاع من ضوء الشمس أن يمر من خلال منشور زجاجى، فإنه يتكون ما يسمى بالطيف الضوئى Spectrum . يتكون هذا الطيف من سبعة ألوان هى بالترتيب : الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق ، النيلى، البنفسجى، ، وهذه الأشعة مرئية

بالعين المجردة لأن أطول موجاتها تقع ضمن الموجات المرئية . ولكن يوجد نوعان من الأشعة الضوئية وهما : الأشعة تحت الحمراء Infra - Red ، والأشعة فوق البنفسجية Ultra - Violet غير مرئيين لأن طول موجاتهما خارج مجال الموجات المرئية.

تستخدم الأشعة غير المرئية فى الكثير من المجالات العسكرية المتقدمة والحديثة مثل أجهزة الرؤية الليلية للدبابات والمدفعية والمشاة والقوات الجوية، وعناصر الاستطلاع وأجهزة التصوير الليلى فى أحوال الرؤية المعتمة والضباب، وفى وسائل التوجيه لصواريخ الدفاع الجوى الباحثة عن الحرارة. دخلت هذه الأشعة فى بعض التطبيقات العسكرية المتطورة، أهمها مجال الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات، والمقذوفات والصواريخ المضادة للدبابات ، والصواريخ الحديثة جو / أرض والتى توجهها الطائرات على الأهداف الرئيسية.

يبلغ طول موجة الأشعة تحت الحمراء (٠,٨ - ٥٠٠) ميكرون ويمكن لأي جسم معدنى يسخن إلى درجة معينة أن يكون مصدراً للأشعة تحت الحمراء، التى يمكننا أن نشعر بها ولكن لا نراها بالعين المجردة، حيث ينتشر الإشعاع فى شكل موجات حرارية، لذا قد يطلق عليها اسم الأشعة الحرارية.

للأشعة تحت الحمراء خواص الامتصاص من قبل بعض العناصر الموجودة فى الطبيعة، كما أن لها أثراً كيميائياً يستخدم فى التصوير فى الأحوال الطبيعية غير العادية، أيضاً لهذه الأشعة أثراً حرارياً وطيفياً، فتتحول الطاقة الموضوعية التى تحملها إلى طاقة حرارية تقوم بتسخين الأجسام التى تسقط عليها أما أطياف هذه الأشعة فهى تأخذ صورة الأطياف المتصلة أو المتقطعة أو أطياف امتصاص، وهى تتميز بقدرتها على النفاذية العالية وانتشارها المركز.

تعتبر الأشعة الشمسية هى المصدر الطبيعى للأشعة فوق البنفسجية ، ولكن أيضاً يمكن إنتاج هذه الأشعة صناعياً عن طريق القوس الكهربى أو عن طريق لمبات خاصة زجاجها من الكوارتز وبداخلها بخار الزئبق. للأشعة فوق البنفسجية خاصية

الامتصاص ، فيمتص الزجاج العادى الأشعة التى طول موجتها أصغر من (٣٦, ٠) ميكرون ، بينما يمتص الكوارز طيف الأشعة التى طولها أقل من (٢, ٠) ميكرون ، أما الغلاف الجوى فلا يمر منه إلا الأشعة التى موجتها أكبر من (٢٩, ٠) ميكرون. لايسمح الغلاف الجوى للأرض بمرور إلا جزء ضئيل من هذه الأشعة، حيث يمتص معظم الأشعة فوق البنفسجية الواردة من ضوء الشمس، ويقوم غاز الأوزون بحماية الكائنات الحية التى على سطح الكرة الأرضية من التأثير الضار لهذه الأشعة إذا تعرضت لها لفترة زمنية طويلة وبتركيز كبير. لهذه الأشعة آثاراً بيولوچية سلبية، فهى تدمر الخلايا الحيوية كما أنها تؤثر على العين. لذا فإن هذه الأشعة قد تستخدم فى الحروب البيولوجية.

الاستطلاع الفضائى:

فى أكتوبر من ١٩٥٧ أطلق الاتحاد السوفيتى أول قمر صناعى يدور حول كوكب الأرض فى الفضاء الخارجى، أطلق عليه اسم (سبوتينك ١) ، Sputnik 1 أي «رفيق الأرض» ، ليبدأ عصر غزو الفضاء ، ومجال جديد وفعال للتجسس وكشف كل ما يدور فوق سطح الأرض، لم تنتظر الولايات المتحدة طويلاً حتى أطلقت أول قمر صناعى لها فى يناير من عام ١٩٥٨ ، واسمه (أكسبلورر ١) Explorer1 أي «المستكشف» . توالى بعد ذلك إطلاق الأقمار الصناعية من كل من الاتحاد السوفيتى وأمريكا وأنجلترا وفرنسا والهند والصين واليابان وإسرائيل، بغرض الكشف عن أسرار الفضاء، وجيلوجيا الأرض وجمع المعلومات عن الطقس، ثم توسع استخدامها ليشمل الاتصالات والبث التليفزيونى.

يأتى استخدام الأقمار الصناعية فى الأغراض العسكرية، فى مقدمة اهتمامات الدول الكبرى لاستطلاع ومراقبة واكتشاف أي نشاط معادى فى وقت مبكر. يستخدم الاستطلاع الفضائى أقمار صناعية تحلق على ارتفاعات معينة فى مدارات محددة لمسح مناطق معينة للحصول على معلومات عنها من البعد، وهى مزودة بمعدات تصوير خاصة ترسل المعلومات المصورة إلى محطات الاستقبال الأرضية.

يتم استخدام أشعة الليزر لإرسال المعلومات بسرعة تفوق الموجات اللاسلكية بحوالى مائة مرة. تبلغ حساسية التصوير بالأقمار الصناعية، إلى درجة أنها تستطيع مراقبة وتصوير كافة الأشياء الدقيقة التى لا يزيد حجمها عن متر واحد من ارتفاع يصل إلى أكثر من ٥٠٠ كيلو متر. تقوم الأقمار الصناعية أيضاً باكتشاف الغواصات فى أعماق المحيطات، حيث أنها تستخدم كميات ضخمة من المياه لتبريد محركاتها ثم تقوم بتفريغ الماء الساخن خلفها، تاركة أثراً واضحاً يمكن تتبعه بالتصوير، تستطيع الأقمار الصناعية مراقبة التجارب النووية عن طريق تسجيل النشاط الإشعاعى فى الفضاء أو تحت الأرض أو فى المحيطات ، كما تقوم بتحديد مواقع الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات، وكشف كافة صور النشاط العسكرى المتنوع فى البر والبحر من خلال التسجيل الحساس للإشعاع الحرارى الصادر عنها، والذى تسجله أفلام التصوير الحساسة للأشعة تحت الحمراء.

سلاح الضغط الحرارى:

يتكون هذا النوع من السلاح من وعاء يحتوى على وقود وشحنتين متفجرتين منفصلتين ، ويحتوى الوقود فى الغالب على بارود التترانايت ، بعد إطلاق القذيفة، تتفجر أولى الشحنتين لتفتح الوعاء، وينتشر الوقود على هيئة سحابة بخارية، ليختلط بالأكسچين الموجود فى الجو، وينتشر داخل الأبنية وحولها، فتنفجر الشحنة الثانية، لتفجر هذه السحابة البخارية المنتشرة مما يؤدى إلى حدوث سحابة لهبية شديدة الحرارة تقوم بحرق جميع ما يقابلها ، واستهلاك الأكسچين الموجود بالمكان مؤدياً إلى حدوث ضغط عال للغاية أو ما يسمى بموجة الانفجار، مما يؤدى إلى سحق كل ما فى طريقها، وفى خلال جزء من الثانية يصل الضغط فى مركز الانفجار إلى ٣٠ كجم لكل سنتيمتر مربع (أي حوالى ٢٩ ضعف قيمة الضغط الجوى العادى عند مستوى البحر) ، وتصل درجة الحرارة إلى ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ درجة مئوية . إن هذه الموجة تسحق جميع الأشخاص الموجودين بداخلها بالإضافة إلى أنها تنتشر بسرعة ٣٠٠٠ متر فى الثانية - أي عشرة آلاف كيلو متر فى الساعة - مؤدية إلى حدوث فراغ Vacuum والذى يسحب الأشياء غير الثابتة ، ليملأ الفراغ.

سلاح الضغط الحرارى له آثار الأسلحة النووية فيما عدا آثارها الإشعاعية، ولأن الوقود ينتشر على هيئة سحابة، فإنه يمكن أن يدخل الأبنية والكهوف والدبابات دون خرقها، بل يدخل من خلال الفتحات الطبيعية بها، وإذا تم إطلاق القذيفة داخل إحدى المبانى ، فإن تحديد السحابة بداخلها يضاعف من الآثار التدميرية على المبنى ومحتوياته . إن أسلوب هذا السلاح فى القتل غير تقليدى فالذى يقتل هو موجة الضغط الساحقة والفراغ الذى ينشأ بعدها، مما يؤدى إلى انفجار الرئتين ، وحتى فى حالة احتراق الوقود دون انفجار فإن استنشاق الوقود المحترق ليس أقل فتكاً من استنشاق أي من الأسلحة الكيمياوية . الوقود المستخدم فى هذا النوع من السلاح عادة ما يكون أكسيد الإثلين أو أكسيد البروبلين الشديدى السمية.

هناك ثلاث مناطق واقعة تحت تأثير هذا السلام المدمر : المنطقة الأولى : هى مركز الانفجار ، حيث يموت جميع الأشخاص الموجودين به بسبب السحق أو بسبب الاحتراق، المنطقة الثانية: هى الواقعة على أطراف الانفجار، ويحدث للموجودين داخلها إصابات شديدة من حروق وكسور وإصابات من الأشياء المتطايرة بالإضافة إلى العمى . كما أن الإصابات الناتجة عن سحق بعض الأعضاء قد تؤدى إلى انسداد الأوعية الدموية بالهواء. أو إلى ارتجاج فى المخ. أو إلى نزيف داخلى فى الكبد والطحال، أو إلى خروج العينين من تجويفها، أو انفجار فى طبلة الأذن، أما الأشخاص الواقعون فى المنطقة الثالثة : فمع أنهم غالباً فى حماية - إلى حد ما - من الأشياء المتطايرة إلا أن موجة الضغط غالباً ما تؤثر عليهم وعلى أعضائهم الداخلية، بالإضافة إلى إصابتهم بالحروق.

يمتلك هذا السلاح : الولايات المتحدة الأمريكية ، والهند، والصين، وبلغاريا، وروسيا، وتعتبر روسيا هى الرائدة فى استخدام سلاح الضغط الحرارى، حيث استخدمته فى أفغانستان لقتل المجاهدين داخل الكهوف فى الجبال، ثم فى حربها مع الشيشان بين عامى ١٩٩٤ - ١٩٩٦ خارج مدينة جروزنى ، ضد القرى والمقاتلين المختبئين فى الجبال، ثم فى عام ١٩٩٩ استخدمت روسيا سلاح الضغط الحرارى فى

بعض القرى بـ «داغستان» ، وبعد ذلك استخدمته لقتل المجاهدين داخل المبانى بمدينة جروزنى الشيشانية.

الموجات الكهرومغناطيسية:

إذا كانت مخاطر الحرب البيولوجية والكيميائية أنها تهاجم الضحايا من مصدر مجهول يستحيل أو يصعب رصده. . فإن هناك حرباً أخطر يتم الإعداد لها فى سرية تامة داخل معامل الدول الكبرى ألا وهى حرب الموجات الكهرومغناطيسية . هذه الموجات أو أسلحة الطاقة الموجهة لشل حركة العدو أو إصابة أحد أجهزة جسم الجندى تعتبر أساس حرب المستقبل لدى كل من الولايات المتحدة وروسيا والصين وبريطانيا وألمانيا وهولندا وفرنسا وإيطاليا. وقد استخدمها الأمريكان بالفعل فى أول تجربة لها أثناء حرب الخليج عندما أسقطوا قنابل كهرومغناطيسية فوق العراق، كما جاء فى مجلة «ديفنس نيوز» فى عدد ٤ مارس ١٩٩٢ ، كذلك استخدم الروس سلاح موجات الراديو بالترددات القصيرة ضد الثوار الأفغان عامى ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ كأول نموذج روسى لهذا السلاح وتم وضع أحد النماذج المتطورة على طائرة هليكوبتر مهمتها توجيه الصواريخ بالردار . وقد أبدى العسكريون اهتماماً كبيراً بالموجات الكهرومغناطيسية كسلاح نظيف غير ملوث للبيئة فعال، غير مرئى وصامت.

تختلف الأسلحة الكهرومغناطيسية عن التسليح التقليدى فى ثلاثة أوجه:

أولاً : إن قوى دفع الأسلحة النارية تعتمد على تفاعل كيميائى نتيجة احتراق البارود. أما الأخرى فتنطلق من خلال مولد كيميائى أو حرارى أو ضوئى أو حتى نووى.

ثانياً : لم تعد قذيفة المستقبل هى الرصاصة أو القنبلة ولكنها موجة كهرومغناطيسية أو شعاع من الجزيئات. وبدلا من المدفع الذى يطلق القذيفة تنطلق الموجة عبر هوائى «ايريال».

ثالثاً : تصل سرعة الموجة الموجهة إلى سرعة الضوء «٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية» فى حين أن أقصى سرعة للقذفية العادية هى ٣٠ ألف كيلو متر فى الساعة.

يوضح دانيال دبريه الخبير الأوروبى الذى قضى سنوات فى دراسة الأسلحة الكهرومغناطيسية أن قوة هذه الأسلحة تقاس بطول الموجة التى تصدرها أو نوع التعديل فى الشعاع. فهناك خمسة أنواع من هذه الأسلحة طبقاً لتردد الموجات، ولازال الباحثون يحاولون اكتشاف أضرار هذه الموجات الموجهة ، فالثلاثة أنواع ذات التردد المنخفض جداً والعالى وموجات الراديو يعتقد أنها قد تؤثر على النواحى الحيوية والنفسية للإنسان ، وقد تغير من قدراته الذهنية وذاكرته. وفى السبعينات من القرن الماضى قام الجيش الأمريكى فى سرية تامة بتمويل أبحاث عن تأثير الموجات ذات الترددات المنخفضة جداً وثبت أنها تسبب اضطرابات فى القلب عند تسلطيها على الإنسان . وفى عام ١٩٨٩ نشرت المجلة الأمريكية «ميكروويف نيوز» تصريحاً للرئيس الروسى السابق بوريس يلتسين يعترف فيه بأن المخابرات السوفيتية ك.جى.بى كانت فى عهده تدرس إمكانية استخدام الترددات القصيرة جداً والتى تتراوح من صفر إلى ٣٠ هرتز فى قتل العدو عن بعد بالسكتة القلبية . وفى أمريكا يتم تطوير أسلحة المستقبل بالتعاون بين وزارتى الدفاع والعدل. وفى تقرير نشرته عام ١٩٩٦ اللجنة الاستشارية العلمية للقوات الجوية الأمريكية تبين أن هذه الموجات عند تأثيرها على الإنسان يمكن أن تمنع الحركات العضلية الإرادية وبالتالى تشل حركته وأيضا أن تتحكم فى انفعالاته وردود فعله وقد تصيبه بالنعاس أو تنقل له أفكاراً ومقترحات أو تتدخل فى ذاكرته قصيرة المدى وطويلة المدى وذلك بأن تزرع فيه خبرات لم يكتسبها بنفسه أو تمسح من ذاكرته خبرات مكتسبة. ويحلم العلماء أن يسيطروا بهذه الأسلحة على الصراعات المسلحة أو العمليات الإرهابية أو حوادث خطف الرهائن.

حرب المستقبل :

جندى المستقبل فى أرض المعركة سيكون مدرع إلكترونيا ومحاصر داخل حلة «بذلة» محكمة الإغلاق تمنع نفاذ أي أسلحة كيميائية أو بكتيرية ، وعلى رأسه خوذة تلتقط الأشعة تحت الحمراء وبها شاشة تحدد احداثات وضعه الجغرافى فى أرض المعركة وتحسب له مسار القذيفة التى يطلقها. وفى ذراعه بندقية تعمل بالليزر أو مسدس يعمل بالموجات القصيرة يوصله بقيادته عبر القمر الصناعى. أنه جندى مشاة على مستويات التكنولوچيا ليناسب التغيرات الشديدة فى استراتيجية العمليات الحربية بعد نهاية الحرب الباردة، كظهور مهام جديدة للقوات المسلحة مثل التدخل فى مناطق النزاع أو حفظ السلام وكذلك مواجهة الحركات الإرهابية وحالات العصيان والتمرد وخطف الرهائن وحتى الأنشطة شبه العسكرية لمافيا المخدرات. أسلحة حرب المستقبل كما تقول مجلة «سيانس أيه فى » يتم إعدادها منذ عشرات السنين خاصة فى المعامل الأمريكية والروسية ، ومنها أسلحة الطاقة الموجهة التى تشل حركة العدو عن بعد ولكن دون الإضرار بالمصالح الاقتصادية فى المنطقة أو ترك نفايات أو حدوث تلـــوث، إنها باختصـــار «حرب نظيفة» بلا قتلى . يـرى البروفيسور «برنار فيريه» رئيس معمل تفاعلات الموجات مع المواد بجامعة «بوردو» الفرنسية أن أسلحة المستقبل تختلف فى تأثيرها على الإنسان لأن مقاومة الجسم للمجالات الكهربائية ذات الضغط العالى المماثلة لأشعة من الموجات ذات التردد العالى «ميكرو» تعتبر جيدة . ولابد من أسلحة قوية جداً لإحداث آثار مدمرة على الإنسان، فقد أثبتت التجارب على الحيوانات قلة تأثير الموجات. وحتى الآن لم تنشر معلومات مؤكدة عن تأثير الموجات «الميكرو» وإن كانت هناك نتائج إيجابية تم التوصل إليها فى سرية تامة داخل المعامل العسكرية. ان التطبيق المحتمل للموجات «الميكرو» حتى الآن هو استخدامها فى تحديد مكان الأشخاص وتتبع أثرهم من خلال بطاقات إلكترونية مزروعة تحت الجلد. وفى ترسانة الأسلحة الكهرومغناطيسية يوجد أيضا «الردار القاتل» والذى يستخدم موجات الراديو "RF" وأيضاً موجات الميكرو "MO" وتتفاوت قوة إرسالهم من بضعة ملايين إلى آلاف

المليارات من وحدة الطاقة «وات». ويرى بعض العلماء أن الأجزاء التى تتركز عليها الطاقة الكهرومغناطيسية فى الجسم البشرى هى المخ والرقبة والصدر والغدد التناسلية، وتكفى جرعة من الإشعاع المستمر فى إحداث ميول اكتئابية واضطرابات فى الذاكرة وإصابات جلدية ونزيف بالعين وحتى السرطان . أشار مقال فى جريدة «نيويورك تايمز» الأمريكية بتاريخ ٣ مارس ٢٠٠١ إلى سلاح جديد غير قاتل يصدر موجات كهرومغناطيسية ويؤدى للإحساس باحتراق الجلد دون إصابة فعليه ويمكن استخدام هذا السلاح فى تفريق الجماهير فى حالات الشغب وذلك فى نطاق ٥٠ متر. أنها بديل للرصاصة المطاطية للقرن الواحد والعشرين، والتى أعدها خبراء البنتاجون بعد أبحاث دامت عشر سنوات ليستخدمها الجنود الأمريكيون فى مواجهة الجماهير فى مناطق القلاقل والصراعات مثل كوسوفا وأثيوبيا خلال مهمات حفظ السلام . أما أخطر أسلحة المستقبل فهى الموجات «الميكرو» عالية القدرة «MFP» والتى تماثل قوتها تأثير السلاح النووى وهذه القنابل الكهرومغناطيسية يمكن نقلها من خلال صواريخ متحركة فى عرض البحر مثل توماهوك وأباتشى وإسقاطها مثل القنبلة العادية أو إطلاقها بمدافع بعيدة المدى وعند إنفجارها تطلق خلال ميكرو ثوان أو وحدة زمنية تساوى أجزاء من ميلون من الثانية «قوة مغناطيسية» مقدارها عدة ملايين من الكيلو وات . وهناك أيضاً مولدات ماركس وهى أسلحة يعاد شحنها واستخدامها مرة أخرى وتطلق مجالات مغناطيسية كفيلة بتدمير - خلال ميكرو ثوان - الأجهزة الإلكترونية والكمبيوتر فى نطاق محيط واسع جداً.

ولقد تم استخدام مولدات «MFP» فى اليوم الأول لعملية عاصفة الصحراء أثناء حرب الخليج لتوجيهها لأنظمة الدفاع الجوى ومراكز القيادة فى جيش العراق ، ويرى المراقبون العسكريون أن استراتيجية الدفاع لابد أن تقوم على إحاطة جميع الأنظمة العسكرية من دفاع جوى ونظم اتصالات وغيرها بمجموعة من أسلحة الطاقة الموجهة التى ستصبح إحدى أولويات القرن الجديد. وهكذا فإن التقدم التكنولوچى سيكون مفتاح التفوق العسكرى.

تجـارة السـلاح :

فى عام ١٩٧٨ أنفق العالم سنوياً ٣٠ بليون دولار على السلاح، بينما بلغ الإنفاق الحربى ٤٠٠ بليون دولار. تحتل الولايات المتحدة الأمريكية المرتبة الأولى فى الترتيب بنسبة ٤٧٪ ، ثم الاتحاد السوفيتى فى ذلك الحين بنسبة ٢٧٪ ، ثم فرنسا بنسبة ١١٪ ، ثم بريطانيا وإيطاليا بنسبة ٤٪ من تجارة العالم فى السلاح. لقد ارتفعت قيمة مبيعات السلاح الأمريكى لدول العالم الثالث من ١ بليون دولار عام ١٩٦٠ إلى ٩,٦ بليون دولار عام ١٩٧٨ كما بلغت مبيعات الاتحاد السوفيتى ٤,٣ بليون دولار عام ١٩٧٨ بعد أن كانت ٠,٨ بليون دولار عام ١٩٦٠ . احتلت المراكز الخمسة الأولى فى شراء السلاح من العالم الثالث بالترتيب : العراق، إيران، إسرائيل، كوريا الجنوبية، والمملكة العربية السعودية.

تاريخياً كان أبرز اسمين فتحا الطريق نحو صناعة السلاح هما السويدى ألفريد نوبل الذى اكتشف الديناميت عام ١٨٦٧ ، والثانى الأمريكى ستيفنز مكسيم الذى صنع فى النمسا أول بندقية يمكن أن يستعملها شخص واحد ويطلقها بيد واحد وكان ذلك عام ١٨٨٨ . كانت من أوائل الشركات التى قامت بصنع السلاح والتجارة فيه هى شركة كروب الألمانية ، وينافس كروب وليم أرمسترونج الذى أنشأ صناعة السلاح فى بريطانيا.

تجسدت الصورة القبيحة لتجارة السلاح خلال الحرب العالمية الأولى، فالبندقية البريطانية كانت فى أيدى الأتراك تطلق النار على الجنود البريطانيين، والمدفع الفرنسى كان فى أيدى قوات بلغاريا مصوب إلى جيش فرنسا، ومدافع كروب فى بورسيا كانت هى سلاح مقاومة ألمانيا. أى أن تجارة السلاح ليست لها وطن، أو عقيدة، إلا الربح المادى فقط، مما أثار العالم ، فقامت عصبة الأمم بتشكيل لجنة تحقيق انتهت إلى النقاط التالية :

١ - أن شركات السلاح كان لها دوراً نشيطاً فى إثارة مشاعر الحرب ودفع دولها إلى سياسات عدوانية وذلك من أجل زيادة تسليحها.

٢ - إن هذه الشركات قامت برشوة المسئولين الحكوميين سواء فى دولهم أو فى الدول الأخرى.

٣ - إن شركات السلاح نشرت تقارير كاذبة حول تسليح الدول المختلفة وذلك بهدف تصعيد معدلات الإنفاق العسكرى.

٤ - إن شركات السلاح عملت على التأثير فى الرأى العام وذلك من خلال السيطرة على الصحف فى دولها أو فى دول العالم الأخرى.

٥ - إن شركات السلاح قد نظمت الساحة الدولية للإنتاج الحربى، ومن خلالها أصبح سباق التسلح واضحاً بإثارة دولة ضد أخرى.

٦ - نظمت هذه الشركات نفسها فى احتكارات عالمية بما يتيح لها رفع أسعار الأسلحة التى تباع فى دول العالم.

وبدأ الهجوم على شركات السلاح، ولكن استطاعت هذه الشركات تجاوز الأمة وأتبع ذلك التوسع فى تصنيع السلاح وتجارته، وفتحت هذه الشركات أسواقاً جديدة فى أسبانيا لبناء البحرية، واليابان عام ١٩٣١ ، فقامت اليابان بغزو منشوريا شمال الصين، ثم تحولت تجارة السلاح إلى الصين لمواجهة الزحف الشيوعى، وإلى أسواق أمريكا اللاتينية مع اشتعال الحرب بين بوليفيا وبارجواى عام ١٩٣٢ . ثم بدأت الحرب العالمية الثانية فشهدت تجارة السلاح تطوراً فى تكنولوچيا السلاح وتنوعه، وفى عدد الدول التى تقوم بصنعه، وبعد أن كانت تجارة السلاح قائمة على وكلاء بيع أصبحت الدول من خلال الملحقين العسكريين لهم الدور الأساسى فى تجارة السلاح.

فى مقالة فى (Herald Tribune) ، كتب توم شانكير فى ٢٥ سبتمبر من عام ٢٠٠٣ بأن الولايات الأمريكية قد أصبحت الرائدة والمسيطرة على تجارة السلاح، فقد بلغت مبيعاتها من الأسلحة التقليدية فى عام ٢٠٠٢ ، ١٣,٣ بليون دولار، وبزيادة قدرها ١,٢ بليون دولار عن مبيعاتها من السلاح فى عام ٢٠٠١. بلغ

إجمالى السلاح الذى استوردته الدول النامية من الولايات المتحدة عام ٢٠٠٢ حوالى ٨ بليون دولار. احتلت روسيا المركز الثانى فى بيع السلاح إلى الدول النامية بقيمة ٥ بليون دولار، تليها فرنسا بقيمة بليون واحد من الدولارات.

فى العقد الأول من الألفية الثالثة أصبحت إسرائيل من الدول الرئيسية فى تجارة السلاح، ففى عام ٢٠٠٣ أبرمت إسرائيل وروسيا صفقة قيمتها أكثر من بليون دولار لتزويد الهند بطائرات عسكرية روسية مجهزة بأنظمة استطلاع وإنذار مبكر إسرائيلية الصنع من طراز (فالكون) المحمولة جواً. حققت شركات الأسلحة الإسرائيلية مثل آلبيت تاديران - معرفوت ، وغيرها من شركات الصناعات الجوية الإسرائيلية أرباحاً ضخمة من تجارة السلاح والمعدات العسكرية . وقامت إسرائيل أيضاً بعقد صفقة مع تركيا لتطوير دباباتها، وتطوير طائرات الفانتوم التركية. لقد بدأ التعاون العسكرى بين إسرائيل ودول الغرب منذ قيام دولة إسرائيل وحتى وقتنا هذا، وقامت بتطوير قدراتها التصنيعية من أجل الاكتفاء الذاتى فى بعض الأفرع العسكرية ثم الدخول فى عالم تجارة السلاح.

نزع السلاح:

يوجد وجهتى نظر مختلفتين عن إذا كان سباق التسلح وتكديس السلاح يزيد من احتمال الحرب أو احتمال المهادنة. كان رأى الكاتب الأمريكى هنتنجتون يميل إلى وجهة النظر الأولى، وأعطى مثالات لقرار إسرائيل بمهاجمة مصر فى عام ١٩٥٦ بعد أن تزودت مصر بأسلحة سوفيتية . ولكن ذهب هنتنجتون أيضاً إلى أن احتمال الحرب يتغير تغيراً معاكساً تبعاً لطول فترة سباق التسلح، حيث يجنح كل من أطراف النزاع إلى الاستقرار والالتزام بالروية . إذا حدث توازن نسبى بين أطراف النزاع ، فمن المحتمل أن تصل جميع الأطراف إلى تفاهم ضمنى يساعد على قبول مبدأ التوازن. كمثال لذلك التوازن هو ما حدث فى النصف الثانى من القرن الماضى، بعد الحرب العالمية الثانية بين الولايات المتحدة وورائها دول أوروبا الغربية الأعضاء فى حلف الأطلنطى، وبين الاتحاد السوفيتى وورائه دول أوروبا الشرقية الأعضاء فى

حلف وارسو. لقد أدى التوازن فى سباق التسلح إلى حرب باردة فقط، وتهديدات بالحرب لم تؤد أبداً إلى حرب فعلية. يوجد حكمة قديمة للكاتب العسكرى الرومانى فلافيوس ريناتوس: « إذا أردت السلام فاستعد للحرب» ، إن التسلح بالقوة العسكرية والتفوق فيها يؤدى غالباً إلى لجوء الأطراف الأخرى إلى الحذر وإعادة الحسابات خوفاً من الخسارة والتعرض للتدمير والإبادة . فالقوة واجبة حتى إذا رغب الفرد أو رأت الدولة أن السلام هو الخيار الإستراتيجى.

لم يحدث مجهود ملموس لنزع السلاح قبل عام ١٩٥٩ ، إلا أنه فى هذا العام، حددت الجمعية العامة هدفاً للأمم المتحدة وهو نزع السلاح الشامل: التقليدى والكيميائى ، فى ظل رقابة دولية فعالة . فى عام ١٩٦١ رحبت الجمعية العامة بالإجماع ، بإعلان المبادئ المشتركة والذى وافق عليه الاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة الأمريكية، وذلك لتحقيق نزع السلاح نزعاً تاماً، وتم إنشاء جهاز تحت اسم «لجنة الدول الثمانى عشرة لنزع السلاح» وتم تعديل هذا الاسم فى عام ١٩٦٩ إلى «مؤتمر نزع السلاح» ووسعت عضويته إلى واحد وثلاثين عضواً، واتخذ مدينة جنيف بسويسرا مقراً للاجتماعات . عقدت كثيراً من المعاهدات تحظر التجارب النووية فى الجو والفضاء الخارجى وتحت الماء، وتحظر استخدام الأسلحة النووية، وأسلحة الدمار الشامل ومنها الأسلحة الكيميائية، وتمنع إنتاج وتطوير وتخزين الأسلحة الجرثومية (البيولوجية) ، والسامة، ومنع استخدام الأساليب الفنية لتغيير البيئة، وقد أصبحت هذه المعاهدة نافذة بعد التصديق عليها من الدول الموقعة عام ١٩٧٨ . وصدرت قرارات من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٨٦ بشأن حظر الأسلحة الكيميائية والجرثومية . لم تردع هذه المعاهدات والقرارات الدولية دول كوكب الأرض من المضى فى أبحاث الأسلحة البيولوچية والكيميائية والنووية، واستمر سباق التسلح، والمضى قدماً نحو امتلاك قوى التدمير، والقتل والتخريب. سار التقدم التكنولوجى والحضارى للمنظومة البشرية موازياً وفى نفس اتجاه مسار التقدم فى تطوير وامتلاك قوى التدمير، وعجز دعاة السلام فى إيقاف سباق التسلح ومنع الحروب ، ومازال التطور والرقى يسير فى نفس اتجاه التدمير والهدم، ولن يتوقف كلاهما طالما تحوى جينات الإنسان غريزتى الحياة والموت.

نشوب الحروب :

تعددت الأسباب المؤدية إلى استخدم القوة العسكرية فى النزاع بين الدول، فمنها أسباب اقتصادية مثل السيطرة على الموارد الطبيعية والنزاع على حقوق التجارة، ومنها أسباب عقائدية دينية، وقومية وعنصرية وثقافية . منها أيضاً الدوافع النفسية لتفريغ الطاقة العدوانية الكامنة داخل الفرد الذى يعتبر نواة المجتمع والدولة. إذا كان الإغريق قد اشتهروا بحبهم للحروب والاعتداء على الدول والشعوب المجاورة دون مراعاة لأي قواعد أو علاقات إنسانية، فإن بعض الفلاسفة الرومان قد حاولوا تحديد مشروعية الحروب بما يسمى بالحرب العادية، وهى التى تبدأ - حسب اعتقادهم - بموجب القوانين وتحظى بموافقة الحكماء ، ومتماشية مع مشيئة الآلهة . وضع الرومان القدامى قواعد وأسباب الحروب، وهى الإخلال بمعاهدة أو الاعتداء على السفراء، أو انتهاك حرمة الأراضى الرومانية، أو مساعدة أحد أعداء روما. أعاد جروشيوس فى القرن السابع عشر مفهوم الحرب العادلة باعتبارها وسيلة للسيطرة على استخدام القوة وذلك بعزل الأسباب الدينية والعقائدية ، فبين أن الأسباب العادلة للحرب هى الدفاع عن النفس ، وحماية الممتلكات ، ومعاقبة المعتدى على حقوق الدولة أو على مواطنيها ، كما عدد الأسباب غير العادلة للحروب مثل التوسع الجغرافى ، وإخضاع دول أخرى للسيطرة بدون رغبة منها. ذهب مفكرو القرن الثامن عشر إلى اعتبار الحرب ضرورة لسيادة الدولة، ومن مبدأ المساواة بين الدول يجب أن تتعهد الدول بالمحافظة على التزاماتها ، واحترام المعاهدات التى تعقدها، والإمتناع عن التوسع الإقليمى والتدخل فى شئون الغير، والتعهد باللجوء إلى الوسائل السلمية لحل النزاع مثل المفاوضات والتحكيم والوساطة . بناءً على ذلك اعتبرت الحرب مسألة واقعية متعلقة بالقانون الطبيعى ، فإذا ما وقعت الحرب فإن القانون الذى يطبق هو قانون الحرب، بغض النظر عن كيفية قيامها، ومدى عدالتها.

لماذا تنشب الحروب ؟ . . أجاب جرج كاشمان فى كتابه الذى يحمل عنوانه نفس السؤال :« يحاجى محللون كثيرون بالقول بأن الدول تشن الحرب رداً على أفعال سابقة موجهة من دول أخرى، وأن كل ما فعلته الدول (أ) هو ردها على أفعال عدوانية من الدولة (ب). . وماذا عن الدولة (ب) إنها نفس الإجابة. فما استحث الدولة (ب) هو فعلة أكبر للدولة (أ) ، وهكذا دواليك . وربما بدت بدايات هذه العملية التفاعلية بين الدولتين مستترة وراء غلالة الأحداث التاريخية، مما صعب معرفة من كان البادئ وكيف بدأ، وينتهى الأمر بنزوعنا إلى عدم المبالاة ». إن الصراع العربى الإسرائيلى لا يعود إلى حرب ١٩٤٨ أو إلى القرن التاسع عشر عندما بدأت هجرات اليهود إلى فلسطين تتزايد وفقاً لخطة موضوعة، ولكن جذور الصراع متغلغلة من حوالى أربعة آلاف عاماً، منذ هجرة عائلة خليل الله إبراهيم عليه السلام من بلدته (أور) فى بلاد بين النهرين (العراق حالياً) قاصداً أرض الشام ثم مصر، هرباً من ملك مستبد أو سعياً وراء رزق الرعى. استوطن أحفاد إبراهيم أرض مصر لمدة أربعمائة عام حتى أخرج موسى شعبه من بنى إسرائيل إلى أرض الميعاد، ليبدأ صراع طويل ومستمر مع الشعوب التى كانت تستوطن هذه الأراضى، ومنهم العمالقة ، والكنعانين ، والفلسطنيين ، وهم عرب الحاضر. نسى أو تناسى أطراف النزاع - خاصة العرب - الجذور التاريخية للصراع، وأصبح غير ذات معنى التساؤل عن من الذى بدأ ، ولكن تركز الجدل - مع الصراع - على الحق، غافلين عن أن الحق نسبى ، ويختلف باختلاف المنظور ، والصور الذهنية التى تكونت عبر آلاف السنين لوجهتى النظر.

إذا كانت الحرب هى وسيلة لتحقيق غاية، فقد تكون السياسة هى الغاية التى تستخدم فيها الحرب لخدمتها، والسياسة هى كلمة ألمانية الأصل Politick قد تعرف بأنها أي نوع من العلاقات التى يديرها أي نوع من الحكومات فى أى نوع من المجتمعات. إن القول بأن الحرب تخدم السياسة أو هى امتداد للسياسة يعنى أنها تمثل أداة فى يد السلطة التى تستخدم العنف لتحقيق أغراض سياسية . إذا كان غرض الحرب لخدمة السياسة الداخلية ، فغالباً ما تكون الحرب لإلهاء الشعب عن الفساد أو

القلاقل الداخلية أو فتح منفذ تنفيثى لشعب يعيش تحت ضغوط داخلية، أما الأهداف الخارجية قد تتبلور فى أسباب استراتيچية مثل : الذود/ الحماية عن أرض، أو درأ خطر، أو العدوان لكسب أرض أو ثروات ، أو أسباب دينية/ عقائدية تسمى بالحرب المقدسة أو الجهاد، والتى تمتلىء بها القصص الدينية وكتب التاريخ.

تتسم الحروب المقدسة بأسلوب الإبادة والفناء، ففكرة غضب (الآلهة) على شعب ما يعنى وجوب فناء هذا الشعب حتى يرضى الإلة عن الشعب. ولكن منذ عهد ميكيافيللى حتى وقتنا الحالى فإن كلمة «المصلحة» تعتبر أدق تعبير شامل وجامع للأغراض التى تندلع من أجلها الحروب. فإذا كانت الحروب قديماً هى للحصول على أسرى من أجل أكل لحومهم أو استعبادهم للخدمة فى بيوتهم، فإن الحروب الحديثة هى لاستعمار دولة من أجل الاستيلاء على ثرواتها، أي أن الغرض قديماً أو حديثاً لم يتغير وهو غبن الإنسان القوى لأخيه الإنسان الضعيف، فالقوة كانت ومازالت أداة فى أيدى البشر لتحقيق هدفه، وفرض إرادته ، وإطفاء لهيب شهواته.

كانت معركة «السوم» الأولى، فى الحرب العالمية الأولى، والتى دارت على أرض فرنسا فى الفترة من أول يوليو إلى ١٩ نوفمبر١٩١٦ ، من أكثر المعارك الدموية فى التاريخ الحديث، وقد أسفرت هذه الحرب عن مقتل أكثر من مليون شخص من الحلفاء والألمان. وهناك أيضاً معركة «ستالينجراد» والتى دارت بين الجيش الألمانى، والقوات الروسية والتى انتهت باستسلام القوات الألمانية ، وقدرت الخسائر بحوالى اثنين مليون من الجانبين، ما بين قتيل وجريح. أما بالنسبة للتاريخ القديم فإن معركة «بلاتايا» التى دارت على أرض بلاد اليونان بين القوات اليونانية والقوات الفارسية عام ٤٧٩ق.م من أكثر المعارك الدموية ، حيث قتل فى هذه الحرب ما يقرب من ربع مليون مقاتل. كما يزعم المؤرخون أن عدد القتلى فى معركة «شالون» التى جرت على نهر المارن بفرنسا بين الجيش الرومانى ، ومقاتلى قبائل الهون الهمجية الغازية عام ٤٥١م قد بلغ فى يوم واحد فقط حوالى مائتى ألف قتيل. كان حصار فرعون مصر بسماتيك الأول لمدينة «أزوتس» الفلسطينية (مدينة أشدود الحالية) والذى جرى فى القرن السابع قبل الميلاد، أطول حصار فى التاريخ حيث دام وفقاً لرواية المؤرخ الأغريقى هيروديت حوالى ٢٩ عاماً.

قد يضحى بعض الناس حتى بأرواحهم لتحقيق أهدافهم من أجل أنفسهم أو من أجل أبنائهم / مجتمعاتهم ، ولكن يوجد الكثير من البشر من يقاتل حتى دون أن يعرف لماذا يقاتل ، أو ما هو الهدف من القتال والدخول فى الحرب. إذا كان إثبات الذات أو «الثيموس» فى الحضارة الأغريقية هى هدف من أهداف الصراع ، فإن الرغبة فى الانتماء للمجتمع أو الخوف من اتهام الخيانة والهروب من الواجب الوطنى قد يكون دافع لمن لا رأى له أو غير الراغب فى الدخول فى صراع قد لا يكون غير ذى معنى من وجهة نظر بعض البشر. الحق نسبى ودائماً نكون نحن حق، والشر/ الخطيئة شىء نسبى وغالباً الآخر يتسم بها، فالإنسان دائماً ما يبرر أخطاءه، وغالباً ما يقوم بعملية اسقاط مشائن أفعاله على الغير. الصراع/ القتال غريزة مغروسة فى جينات الإنسان ، مع كثير من الغرائز التى لم يستطع الإنسان التخلص منها بالرغم من تطور حضارته ورقيه التكنولوجى ، ولن يستطيع مستقبلاً إلا عن طريق عمليات التعديل الجينى، وحتى ذلك الحين سيسعى الإنسان دوماً من أجل تطوير عناصر القوة وامتلاكها، واستخدامها فى السيطرة والهيمنة والتدمير.

عندما تتكافأ قوة مع قوة أخرى تنشأ المنافسة، التى يمكن تعريفها بأنها اختبار للقوة بشكل غير مباشر. قد تظهر المنافسة فى النواحى العسكرية، أو التجارية، أو الرياضية، أو العلمية . . إلخ. لا تجيز القواعد التى تميز بين المنافسة والنزاع أن يواجه الأطراف بعضهم البعض بشكل مباشر. فى المنافسة الشريفة لا يعوق أو يدمر الطرفين المتنافسين بعضهم البعض حتى مع محاولة كل من الطرفين تحقيق أهدافه، أما فى الحروب فغالباً ما تحدث المجازر والدمار.

يمكن قياس قوة الدولة من خلال بعض المؤشرات لخصائص متنوعة تحدد الإطار العام لثبات الدولة واستقرارها وقوتها العسكرية. تتمثل هذه المؤشرات فيما يلى:

- الحجم الجغرافى - أي المساحة الكلية.
- الحجم السكانى - أي عدد المواطنين.
- التقدم التكنولوجى والتطور العلمى.
- القوة العسكرية المتمثلة فى عدد المجندين بالقوات المسلحة، الميزانية السنوية للدفاع، والأسلحة المتاحة من عدد ونوع (قوة التدمير المؤثرة).

- الاستقرار السياسى ممثلا فى حرية أفراد الدولة وتطبيق النظم الديمقراطية.

يبين الجدول رقم (٣) بعض بيانات القوى العسكرى لمجموعة من دول العالم والتى لديها ميزانية عسكرية مرتفعة، وكذلك بيانات لبعض دول الشرق الأوسط. من البيانات المتاحة يتضح أن الولايات المتحدة الأمريكية تحتل المرتبة الأولى. ثم روسيا فى الميزانية العسكرية والقوة العسكرية من أفراد وعتاد.

جدول (٣)

بيانات القوة العسكرية لبعض الدول لعام (٢٠٠١)

الدولة	الميزانية العسكرية بليون دولار	القوة العسكرية ألف فرد	المركبات المصفحة المقاتلة	الطائرات المقاتلة
الولايات المتحدة	٣٣٩,١	١٤٠٠	٣٢٠٠٠	٧٦٠٠
الصين	٤٧,٠	٢١٠٠	١٤٥٠٠	٣٣٠٠
روسيا	٦٥,٠	٨٥٠	١٨٠٠٠	٢١٠٠
اليابان	٤٢,٦	٢٤٠	٢١٠٠	٣٨٠
بريطانيا	٣٨,٤	٢١٠	٤١٠٠	٤٢٠
ألمانيا	٢٤,٩	٢٨٠	٦٦٠٠	٤٠٠
فرنسا	٢٩,٥	٢٥٠	٥٥٠٠	٤٥٠
إيطاليا	١٩,٤	٢٢٠	٢٦٠٠	٣١٠
أيران	٤,٨	٥١٠	٣٥٠٠	٢١٠
مصر	٤,٤	٤٤٠	٧٤٠٠	٦٨٠
سوريا	١,٠	٣١٠	٨٥٠٠	٦٠٠
المملكة العربية السعودية	٢١,٣	٢٠٠	٥٧٠٠	٣٥٠
إسرائيل	١٠,٦	٥٥٠	١٠٥٠٠	٥٧٠

المصدر : http : //WWW.info Please. com/ipa/A0904504.htmI

الحربين العالميتين الأولى والثانية :

بدأت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ بنشوب صراع محلى بين النمسا/ المجر والصرب فى ٢٨ يوليو ١٩١٤ ، والتى تحولت إلى حرب أوربية شاملة بإعلان ألمانيا الحرب ضد روسيا فى أول أغسطس ١٩٢٤ ثم تحولت المعارك إلى حرب عالمية شملت اثنين وثلاثون دولة، منهم بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والولايات المتحدة ضد ألمانيا والنمسا / المجر وتركيا وبلغاريا . لقد اشتعلت الشرارة الأولى باغتيال ولى عهد النمسا الأرشيدوق فرانسس فيرديناند فى البوسنة فى ٢٨ يونيو ١٩١٤ من مواطن صربى متعصب . دخلت الولايات المتحدة الأمريكية والصين الحرب فى عام ١٩١٧ بإرسال قوات لها إلى فرنسا ، عقد صلح فرساى فى نوفمبر ١٩١٨ لتنتهى الحرب العالمية الأولى بعد ما دمرت تكنولوچيا السلاح اليابس والعابث. انتهت الحرب التى شارك فيها ٦٥ مليون من الرجال، قتل منهم حوالى ٨,٥ مليون نسمة وجرح أكثر من واحد وعشرين مليون نسمة بالإضافة إى حوالى ثمانية مليون من مفقودين وأسرى. لقد عانى العالم من ويلات الحرب ومن وباء الأنفلونزا الذى اجتاح العالم بعد انتهاء الحرب فقضى على بضعة ملايين من البشر الذى أنهكتهم المعارك والمجاعات والتخريب الذى ساد جبهات ومدن الدول المشاركة فى الحرب.
كانت أحداث روسيا سنة ١٩١٧ من أهم توابع الحرب العالمية الثانية، فقد تمرد الجنود الروس خاصة فى الجبهة الشمالية، واستولى على الحكم البلاشفة الاشتراكيون بقيادة لينين، لقد كان هؤلاء الاشتراكيين فى حقيقة الأمر ماركسيين متعصبين، فسرعان ما بدأوا فى تغير النظم الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد. لقد اندلعت الثورة الشيوعية فى روسيا فى نوفمبر ١٩١٧ لتحول الأمبراطورية الروسية فى يوليو ١٩١٨ إلى الاتحاد السوفيتى مطبقاً نظام اجتماعى جديد من الشيوعية الماركسية لأكثر من سبعين عاماً.

عانت البشرية من ويلات الحرب العالمية الأولى، لذا سارعت بقبول مشروع الرئيس الأمريكى ولسن بانشاء عصبة الأمم، لنشر السلام وإقامة ضوابط للحروب. عقد أول اجتماع لمجلس عصبة الأمم بباريس فى ١٥ يناير ١٩٢٠ ، ثم انعقد بعد

ذلك بلندن وبروكسل حتى استقر المقام فى جنيف بسويسرا قبل نهايـة نفس السنة. لم تمنع عصبة الأمم قيام الحرب بين اليونان وتركيا فى عام ١٩٢٢ ، ولم تمنع العصبة قيام الحركة الفاشيستية فى إيطاليا بقيادة موسولينى، يدعو إلى تكوين حكومة قوية من جماهير الشعب الإيطالى ومن رجال الأعمال والمال والصناعة.

زحف أنصار موسولينى ذوى القمصان السوداء على روما فى أكتوبر ١٩٢٢ واستولوا على السلطة. ثم يجيء الدور على ألمانيا التى خرجت من الحرب العالمية الأولى مجروحة ومكسورة ليظهر بها حزب سياسى عسكرى يسمى بالحزب القومى الاشتراكى (النازى) يقوده نمسوى يسمى أودلف هتلر الذى أصبح مستشارا للأمبراطورية الألمانية فى عام ١٩٣٢.

لعب هتلر على أوتار الكرامة الألمانية المجروحة، وسرعان ما تحولت هذه النغمات إلى حماس وطاقة فى وجدان الشعب الألمانى، لتبدأ فترة أخرى من حروب ومعارك، ومن قتل وتدمير. امتدت الحرب العالمية الثانية فى الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ ، بصراع دموى بدأ بين ما يسمى بدول المحور (ألمانيا - إيطاليا - اليابان وحلفائهم) وما يسمى بالحلفاء (بريطانيا - فرنسا - الولايات المتحدة الأمريكية - الاتحاد السوفيتى - الصين - وحلفائهم).

اندلعت الحرب جراء غزو ألمانيا لبولندا فى أول سبتمبر ١٩٣٩ ، وسرعان ما توسع نطاقها بإعلان بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا، ثم دخلت إيطاليا الحرب بجانب ألمانيا عام ١٩٤٠ ، وغزو ألمانيا للاتحاد السوفيتى فى يونيو ١٩٤١ ، وهجوم اليابان على قاعدة بيرل هاربور الأمريكية فى نفس العام، الذى أعقبه إعلان ألمانيا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، وامتد نطاق الحرب ليشمل السواحل الشمالية لأفريقيا فى ليبيا ومصر. انتهت الحرب باستسلام ألمانيا فى ٩ مايو ١٩٤٥ واستسلام اليابان فى ٢ سبتمبر ١٩٤٥ بعد إسقاط الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتين ذريتين على المدن اليابانية (هيروشيما فى ٦ أغسطس ونجازاكى فى ٨ أغسطس ١٩٤٥)، واشتراك سبعون دولة فى هذه الحرب. انتهت الحرب العالمية الثانية بالخسائر التالية فى عنصر الإنسان: حوالى ٢٩١ ألف قتيل، ٦٧٠ ألف جريح من الولايات المتحدة الأمريكية، ٣,٢٥ مليون قتيل و٧,٢٥ مليون جريح من ألمانيا،

١,٣٢ مليون قتيل و ١,٧٦ مليون جريح من الصين، حوالى ٣٥٧ ألف قتيل، ٣٧٠ ألف جريح من بريطانيا ، حوالى ٤٦٠ ألف قتيلا ، ٤٠٠ ألف جريح من فرنسا، ١,٢٧ مليون قتيل ، ٤,٦٢ مليون جريح من اليابان ، ١٥٠ ألف قتيل، ٢٠٠ ألف جريح ومفقود من إيطاليا ، وكانت أكبر خسارة فى الجانب السوفيتى الذى بلغ فيه قتلاه ٦ مليون نسمة بالإضافة إلى حوالى ١٤ مليون جريحاً، كما بلغ عدد القتلى والجرحى من الدول الأخرى المشاركة فى الحرب حوالى ٣ مليون نسمة، وبذلك يصل إجمالى القتلى والجرحى فى هذه الحرب حوالى ٤٥ مليون نسمة.

فيما يلى أهم العمليات الحربية التى حدثت بعد الحرب العالمية الثانية :

- أربعة حروب بين الدول العربية وإسرائيل فى أعوام ١٩٧٣، ١٩٦٧، ١٩٥٦، ١٩٤٨ ثم بدء مسيرة السلام بين مصر وإسرائيل، ثم انضمام فلسطين والأردن للمسيرة لتبدأ مباحثات طويلة/ متقطعة / شاقة ، يتخللها انتفاضات فلسطينية واشتباكات على الحدود اللبنانية / الإسرائيلية، واغتيالات وتصفية جسدية.

- الحرب الكورية الأمريكية عام ١٩٥٠ ثم الحرب الأمريكية الفيتنامية.

- غزو الاتحاد السوفيتى لأفغانستان فى عام ١٩٧٩.

- الحرب الإيرانية / العراقية التى بدأت عام ١٩٨٠ لتستمر عدة سنوات.

- الحرب بين بريطانيا والأرجنتين فى عام ١٩٨٢ ، بعد نزاع السيادة على جزر فوكلاند.

- غزو القوات العراقية لدولة الكويت فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ ، وتحرير الكويت فى أوائل عام ١٩٩١.

- الصراع الدموى فى إيرلندا الشمالية.

- انهيار الاتحاد الفيدرالى اليوغسلافى عام ١٩٩٢ لتبدأ سلسلة الحروب بين القوميات الثلاث (البوسة والهرسك / الكروات / الصرب).

- الحروب فى كوسوفا والشيشان فى التسعينات من القرن العشرين.

- غزو القوات الأمريكية والبريطانية للعراق فى عام ٢٠٠٣.

القوة من المنظور السياسى

كانت الأسرة فى فلسفة أرسطو هى النواة الأولى فى بناء المجتمع ، وظهرت الدولة كتطور تاريخى بعد المرور بمرحلتى القرية ثم المدينة . فالدولة هى الهدف النهائى للحياة البشرية، توفر للإنسان الحاجات الأساسية لحياته المعيشية ، وتوفر له الأمان فى الداخل وفى الخارج. ذهب أرسطو إلى أن الإنسان مدنى بطبعه ، وأنه يميل إلى حياة جماعية، سياسية، منظمة بفطرته . خالف الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز فكرة أرسطو فى مدنية البشر، فقد أشار إلى أن حالة الفوضى هى الحالة الطبيعية فى حياة الإنسان ، وأن المجتمع المنظم هو «مجتمع مصطنع» خلقه الإنسان بإرادته وليس بفطرته . فالإنسان فى فلسفة هوبز ليس بسياسى، ولا يميل بطبعه إلى الجماعة المنظمة ولكن النشأة الاجتماعية هى التى تشكل شخصيته بحيث تصبح صالحة للحياة فى المجتمع السياسى، ذلك لأن الحالة الطبيعية الفطرية للإنسان هى حالة من الفوضى يحاول كل فرد فيها المحافظة على حياته بما يملكه من قوى عضلية أو ذهنية أو مادية، وكلما كانت قوى الأفراد متقاربة ، كان الصراع أكثر احتمالاً وأكثر ضراوة. إذا كان الإنسان يحتاج إلى تنظيم، فالتنظيم يحتاج إلى سلطة تخضع لها الجماعة، أي قوة أعلى تحكمه وتنظمه وتضع له القواعد والقوانين . لقد تدعمت هذه السلطة السياسية - على مر السنين داخل الجماعة وسميت بالدولة بأشكالها وصورها المختلفة . يعيش سكان عالمنا الأرضى - فى العصور الحديثة - فى دول بينها علاقات فى شتى الأنشطة ، وتسمى هذه العلاقات بالعلاقات الدولية، أو السياسة الدولية International Politics . تعرف هذه العلاقة بأنها العوامل وأوجه النشاط المختلفة التى تؤثر على السياسات الخارجية وعلى مراكز القوى التى تشترك فى تقسيم العالم.

ذهب البعض إلى أن الإنسان اخترع فكرة الدولة ليتخلص من الخضوع وإطاعة إنسان آخر، أو كما كتبت أستاذة القانون الدكتور سعاد الشرقاوى :« قبول فكرة الدولة يخفف من وطأة الخضوع للسلطة الذى يضطر الإنسان إليه يومياً ويحس

بثقله. وهذا التخفيف ناتج من النقل أو التحول من طاعة إنسان إلى طاعة الدولة، أي أن الدولة كفكرة تضفى نبلاً وسمواً على الخضوع لأنها تقدم تبريراً معقولاً للتمييز بين الحكام والمحكومين معتمداً على أساس آخر غير أساس القوة». فى اتجاه آخر يرى البعض أن الدولة تجلب مع الخير المتاعب والقيود، ويناصر هذا الرأى اليوتوبيين والفوضويون والماركسيون. أما وجهة نظر الواقعيون فهى أن النظام البشرى يحوى القوى والضعيف ، أفراد يأمرون ، وآخرون يطيعون ، يوجد مع الإنسان السادى الذى يتلذذ بالعنف، إنسان آخر مازوكى ينتشى عندما يتعذب ، حتى لو كان هؤلاء غير السويين أقلية فى المجتمع. إن الدولة كما جاء فى المرجع السابق هى تجمع بشرى مرتبط بأقليم محدد يسوده نظام اجتماعى وسياسى وقانونى موجه لمصلحتها المشتركة، وتقوم على المحافظة على هذا التجمع سلطة مزودة تمكنها من فرض النظام ومعاقبة من يهدده بالقوة.

شاع مصطلح الجغرافيا السياسية «الجيوبولوتيكا» Geopolitics بعد تكرار استخدامه من قبل وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق هنرى كيسنجر . تعنى الجيوبولوتيكا عملية إدارة التنافس الكونى من أجل تحقيق التوازن بين القوى العالمية المتصارعة. هناك مدرستان فى دراسة العلاقات الدولية وهما : المدرسة الواقعية، والمدرسة المثالية. تستند المدرسة الواقعية - التى سادت العلاقات الدولية لفترة طويلة من الزمن - إلى الحجج الكلاسيكية التى تدور حول فن السياسة والطرق التقليدية للمنافسة بين الدول. يعتبر ميكيافيللى فى القرن السادس عشر، وكلاوزفتش فى القرن التاسع عشر من رواد هذه المدرسة التى كانت تأكد على مشاعر الخوف وعدم الأمان، ومن ثم زيادة الإنفاق العسكرى للتصدى لأي عدوان محتمل، وهو ما أدى إلى «سياسة القوة» أي أن تقوم الدول القوية بإملاء إرادتها على الدول الأضعف . كانت الحرب أو التلويح بها تمثل نقطة محورية فى توصيف أنصار السياسة الواقعية وتفسيراتهم للعلاقات الدولية، وكان ذلك السبب فى إدانة أصحاب المدرسة المثالية للفكر الواقعى باللأخلاقية . حين تركت المدرسة الواقعية مسئولية تسيير الأمور الدولية فى أيدى القوى العظمى، فإن المدرسة المثالية طالبتها بوضع أمور العالم تحت

مظلة الإرادة الجماعية لكل دول العالم ، ومن هذا المفهوم ولدت عصبة الأمم بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. فى الخلاصة كما قال بيتر تيلور، وكولن فلنت: «إن الواقعية تسعى فى الأساس إلى الحفاظ على مصالح القوى العظمى، إما المثالية فإنها تقوم على مبادئ ليبرالية ، يسعى أصحابها إلى إقامة العلاقات الدولية على أسس دستورية صلبة» . لبست الولايات المتحدة فى بداية الألفية الثالثة - وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى - ثياب المدرسة المثالية ، وباسم نشر الديمقراطية والليبرالية ذهبت إلى فرض إرادتها على الدول التى لا تساير سياستها ومصالحها . لقد تشابكت وتداخلت جميع المفاهيم والقيم، ولكن ما زالت اتجاهاتها تسير فى طريق المنافع وإثبات الذات ، لإشباع الغرائز الأولية للإنسان، لا فرق بين القديم أو الحديث، أو بين إنسان الغاب والمتحضر.

ترتبط الدولة بالأرض والسيادة، وكلمة الأراضى Territory مشتقة من الكلمة اللاتينية Terra وكانت تعنى الأحياء التى تحيط بالمدينة والتى تخضع لها فى الحكم والتشريع. أقرت «معاهدة وستفاليا» عام ١٦٤٨م - والتى تعتبر ميلاد القانون الدولى الحديث - بأن كل دولة «صاحبة سيادة» على أراضيها، بحيث يصبح أي تدخل فى الشئون الداخلية لأي من الدول خرقاً للقانون . من نتاج هذه المعاهدة أن برزت إلى الوجود خريطة أوروبية مقسمة إلى قرابة ثلاثمائة من الكيانات ذات السيادة على أراضيها، وقد مثل ذلك الأساس الإقليمى الأول لمنظومة العلاقات بين الدول الحديثة ، أو رسم خريطة سياسية للعالم . لم يكن الاستقرار هو الطبع الغالب على الخريطة السياسية للعالم، فلقد حدثت تغيرات كثيرة نتيجة لمزاعم سياسية ونزاعات حول الأراضى وجاءت هذه النزاعات لتطغى على الشرعية. من دراسة العديد من المزاعم والنزاعات السياسية وتصنيفها تبين أن ثلاثة منها قد أثرت فى تشكيل خريطة العالم وهى كما ورد فى كتاب «الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر» مرتبة حسب أهميتها: «السيطرة الفعلية على الأراضى ووحدة أراضى الدولة، المزاعم التاريخية والثقافية . أما السيطرة الفعلية على الأرض كحجة لتبرير حق دولة ما على مساحة ما من الأرض، فهى دائماً التبرير الذى تحتاج به الدول لإضفاء الشرعية على غزوها

المسلح لأرض ما. وهناك عرف فى ساحة القضاء المحلى والدولى بأن وضع اليد يمثل تسعة أعشار القانون . ورغم كل المثاليات التى يحفل بها خطاب الأمم المتحدة وسائر الهيئات الدولية الأخرى، فإن سياسة القوى لا تزال تتحكم فى العلاقات الدولية».

يندرج الصراع العربى الإسرائيلى تحت بند المزاعم التاريخية والثقافية ، فكل من الطرفين لهما حججهم فى السبق التاريخى ، وفى الأماكن المقدسة الكائنة فى الأراضى المتنازع عليها. ولكن تبرز القوة للفصل فى النزاع ، وعلى المتضرر أن يقاوم حتى يعيد بناء عناصر قوته فى انتظار فصل آخر من فصول التاريخ.

يختلف صراع الدول عن صراع الأفراد. فإذا حدث صراع بين اثنين من الأفراد، فسيحاول الطرفين كسب تأييد بعض من أعوانه، وإذا وجد أحد الطرفين أنه سيهزم فانه سوف يوسع نطاق الصراع بدعوة المزيد من أعوانه من أجل مزيد من الدعم والمؤازة. وقد يلجأ الطرف الآخر إلى مركز الشرطة إذا وجد أن النتيجة فى غير صالحه. فى عالم صراع الدول تختلف الصورة تماماً ، فالصراع هنا يتكون من شد وجذب سياسى، وحشد للقوى العسكرية، وتخطيط للموارد واحتياجات البلد إذا تأزمت الحالة واضطرت الدولة فى الدخول فى حرب قد يطول أمدها. لن تنسحب الدولة الخاسرة من المسرح السياسى ولكن قد تتغير وجوه القادة والطبقة الحاكمة. إن العنصر الهام فى الصراع كما كتب بيتر تيلور مؤلف كتاب «الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر» هو مراكز القوى الأخرى الممثلة فى الدول الأخرى والتى قد تكون طرفاً فى النزاع، أو كما ورد فى كتابه : « إن محصلة أي صراع فى العالم لا تتوقف فقط على قوة الطرفين المتصارعين، وإنما هى مرهونة أيضاً بالأطراف الأخرى التى تتدخل فى الصراع كلما اتسعت ساحته. فإن أهم عنصر فى الاستراتيچية السياسية هو تحديد ساحة الصراع وتوسيع دائرته لتغيير ميزان القوى، خاصة بالنسبة للدول التى لا تتمتع بالقوى الكافية» . لقد حاول النظام العراقى فى حرب ٢٠٠٣ أن يستميل بعض الأطراف إلى جانبه، بل إنهم استمالوا بعض الدول الأفريقية التى لا تتمتع بأي قوى تُذكر ولكن لها صوت سياسى فى مجلس الأمن. لقد أصبحت القوة السياسية لازمة فى العصر الحديث لدعم القوة العسكرية، مادام الكثير من الدول الكبرى تنادى بقيم

أخلاقية وبنشر الديمقراطية، فلابد لها - حتى وإن كان الباطن مخالف للظاهر - أن تسلك السياسات التى تنادى بها وتحاول أن تفرضها على الدول التى تحكمها النظم الديكتاتورية. لقد أصبحت الدول الكبرى أيضاً تلجأ إلى هيئة الأمم المتحدة، بعد أن كانت البلدان الضعيفة والفقيرة هى فقط التى تسعى إلى تدويل مشاكلها وصراعاتها، فالصراع يكلف حتى الدول الكبرى الكثير من التكاليف مما يدفعها إلى طلب المؤازرة المعنوية، والمشاركة المادية من الدول الحليفة ، وهذا ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية فى حرب العراق عام ٢٠٠٣ عندما اتجهت إلى الدول الأوروبية تحثها على الدخول معها فى الحرب.

يحاجى بعض محللى النظم السياسية فى أن المكانة السياسية ليست قوة أصلية ولكنها قوة ناتجة من عناصر أخرى أصلية من منظومة القوى مثل: القوة العسكرية، القوة المالية والاقتصادية ، قوة المعرفة. إلى حد ما فى هذا القول شىء من الصحة ولكن التغلغل والنفوذ فى مراكز السلطة يعطى قوة سياسية يمكن استخدامها كقوة أصلية. إن مكانة دولة إسرائيل السياسية هو أفضل مثال يمكن أن يوضح هذه المجادلة، فإسرائيل ليست أقوى الدول عسكرياً - وإن كان المحللون العسكريون يضعونها فى مرتبة متقدمة - وهى ليست من الدول الأولى فى المجال الاقتصادى أو التكنولوجى ، فتسبقها دول عديدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية واليابان، ولكن بفضل نفوذها عند متخذى القرار لدى الدول المتقدمة فى منظمة القوى، أصبحت لإسرائيل مكانة سياسية جعلها تفرض إرادتها حتى على الدول الراعية لها. استغلت إسرائيل ثقافتها الغربية، وزرع اليهود فى المراكز الحساسة فى الولايات المتحدة والدول الأوربية لضمان الدعم العسكرى، والمالى والتكنولوجى والسياسى.

ظاهرياً لا يلعب فى ملعب منظومة الدول ، أو لا يمثل على مسرحها إلا الدول كممثلين لشعوبها. تقوم العلاقة على تعاون واتفاق ، أو مشاكل يمكن حلها إما بالتفاوض والتفاهم أو باستعمال القوة، وذلك حتى تحدد كل دولة طبيعة موقفها حيال الدول الأخرى. يوجد فى النظام السياسى ما يسمى بصناعة السياسة

Politification ويتم ذلك بإنشاء منظمات ووكالات تعمل بين الحكومات المختلفة وتمارس نشاطاً ملموساً.

ترتبط العلاقات بين الدولة بنظرية «المؤثر والاستجابة» ، أو الفعل ورد الفعل، من منطلق السلوك القومى للدولة، وذلك انعاكساً من نفس النظرية فى السلوك الفردى الذى ارتكزت عليه المدرسة السلوكية فى علم النفس. إن الجانب الأكبر لسياسة الدولة نابع من رد فعلها لمسلك الدول الأخرى، أو كرد فعل لأفعال أو ضغوط بعض الهيئات أو المؤسسات، أو حتى أفراد يعملون لحسابهم الخاص وإن كان تصرفهم يترك أثراً على النظام الدولى. هناك دائماً تأثير متبادل للأفعال السياسية للدول ، وهناك دائماً تأثيراً ملموساً لشخصيات القادة والزعماء وحكام الدول، وكذلك مجموعات الضغط الرسمية وغير الرسمية.

سبق أن وضحنا أن الضغوط هى صورة من صور القوى التى تؤثر لتغير. ظهر فى العصور الحديثة فى مجال السياسة المحلية والإقليمية والدولية مصطلح «مجموعات الضغوط» والتى تلعب دوراً ملموساً من وراء الستار لتنفيذ تصرفات معينة أو الإيحاء بها، تخدم مصالح تجمع معين. أخذ هذا التجمع شكل الأحزاب والنقابات فى شتى الأنشطة (القانونين ، المهندسين ، الإعلام، الأطباء. . إلخ) ، أو جمعيات دينية، أو حركات دينية، أو تجمعات مصالح تجارية ومالية، أو نشاط قومى، أو حركات ثورية، أو تنظيمات رياضية، أو تجمعات ثقافية وفكرية. تبرز قوة هذه التجمعات فى قدرتها على التأثير والتغيير، من خلال مراكز القوى المحلية والدولية . قد تكون لهذه التجمعات الصفة العلنية، أي تعمل بصورة قانونية لها أجهزتها الإدارية والمالية، أو فى كثير من الأحيان تمارس بعض هذه التجمعات نشاطها بسرية وحذر مثل الحركات أو الخلايا الدينية الثورية، أو معتنقى الإيدولجيات المتطرفة.

كتب جان مينو أستاذ العلوم السياسية بجامعة مونتريال بكندا عن بداية تطور هذه التجمعات فى كتابه «مجموعات الضغوط الدولية» Les Groupes de Pression Internationaux : « إن القرار الذى صدر فى لندن فى شهر سبتمبر عام ١٨٦٤

بإنشاء الاتحاد الدولى للعمال يمكن أن نعتبره نقطة الانطلاق لتطور حركة المجموعات الدولية للضغوط الخفية. كان كارل ماركس هو القوة المحركة وراء إصدار هذا القرار. وكان هذا القرار يدعو إلى تعبئة عامة لقوى العمال بقصد تحقيق وتنفيذ ثورة الطبقة العاملة .. البروليتاريا» . بالرغم من ضعف النتائج المباشرة لقرار لندن ١٨٦٤، إلا أن هذا القرار كان له نتائج هامة على المدى البعيد، فقد انتصرت النظريات الماركسية فى المؤتمر الخامس للعمال الذى عقد فى مدينة لاهاى فى عام ١٨٧٢ ، أصدر المؤتمر قراراً بتكوين حزب سياسى فى كل دولة يهدف إلى تجميع قوى العمال لمواجهة الأحزاب الأخرى التى تمسك زمام السلطة، وبواسطة هذه الأحزاب خلق ماركس فكرة الضغط على الدول تحت ستار العمل على تحسين حالة العمال المكافحين.

تجمع آخر ظهر عام ١٩٤٦ بإنشاء ما يسمى (المؤتمر الاشتراكى العالمى) ، وفى عام ١٩٤٧ أنشأ المؤتمر الذى عقد فى مدينة أنفرس لجنة تنفيذية للمؤتمر الاشتراكى العالمى. فى المؤتمر الذى عقد بمدينة فيينا عاصمة النمسا عام ١٩٤٨ ، وافق المجتمعون بالإجماع على مبادئ كانت تعتبر عكس المبادئ الشيوعية ومنها اعتبار الاشتراكية جزء لا يتجزأ من الديمقراطية. أنشئت عدة هيئات تابعة للاشتراكية الدولية منها الاتحاد الدولى للشبيبة الاشتراكية ، وكذلك المجلس الدولى للسيدات الاشتراكيات الديمقراطيات الذى تأسس فى لندن عام ١٩٥٥ .

خلافاً للهيئات الدولية التى كان لها صبغة شيوعية أو اشتراكية صرفة، ظهرت بعض التجمعات ذات الروح الديمقراطية المسيحية والتى أطلق عليها اسم الأحزاب (الديمقراطية المسيحية أوالاشتراكية المسيحية) . بالرغم من أن بعض الإجراءات التمهيدية قد اتخذت لإنشاء هذه التجمعات بين الحربين العالميتين، إلا أن التأسيس الفعلى لهذه الأحزاب تبلور بعد الحرب العالمية الثانية فى أوروبا . فى عام ١٩٥٦ أصبح للمسيحيين الديمقراطيين وجود ملموس فى دول كثيرة من أمريكا اللاتينية، ثم تم إنشاء التنظيم المسيحى الديمقراطى فى أمريكا عام ١٩٥٨ . أخذت الدول الأوروبية منظور مختلف من خلال الأحزاب المسيحية الديمقراطية ، فبينما اهتم هذا

الحزب فى هولندا بالنواحى الدينية البحتة، كانت نظرته فى فرنسا أكثر شمولاً وتسامحاً. بصفة عامة كانت لهذه الأحزاب قوى ضغط مؤثرة فى أوروبا فى العقود الماضية، فقد كانت تهيمن على الكثير من الصحف اليومية والنشرات الدورية. كذلك قامت الكتلة الشيوعية فى النصف الثانى من القرن العشرين وقبل تفكك الاتحاد السوفيتى بتقديم المساعدات الاقتصادية للدول المختلفة أو ما كان يسمى بدول العالم الثالث، واستمالة هذه الدول بتكوين تحالفات ومعاهدات سياسية واقتصادية وعسكرية. من خلال منظمات مثل : المجلس العالمى للسلام، اتحاد النقابات العالمى، الاتحاد الدولى للطلبة، الاتحاد العالمى لقوى المقاومة . . إلخ، من خلالها تشعبت الكتلة الشيوعية فى التغلغل والنفاذ داخل قوى العالم الثالث. بالرغم من أن بعض هذه الهيئات ذات الصفات الدولية كانت تضم إليها عدداً من الأعضاء المعروفين بعدائهم للشيوعية، إلا أنها كانت تحرص على أن تجعل زمام القيادة والتوجيه فى أيدى الشيوعين أو من يعطفون على الحركات الشيوعية والاشتراكية.

بدأت العلوم السياسية الحديثة فى تصنيف (مجموعات الضغط) كعناصر قوى يمكن أن تؤثر فى القرار السياسى على المستويين المحلى والدولى. تأخذ هذه المجموعات شكل الجمعيات الوطنية أو الدولية غير الحكومية - Non Governmental Organization . لا تعتبر وسائل الإعلام كمجموعة ضغط فى نظر السياسيين، ولكن يمكن استخدامها كأداة واسعة الانتشار، سريعة النفاذ والتأثير على الرأى العام. يمكن تقسيم قوى الضغط السياسية إلى التجمعات التالية :

- منظمات لها هدف معين تسعى لتحقيقه عن طريق التدخل المباشر أو غير مباشر فى مراكز اتخاذ القرارات الحكومية، وكمثال لهذه التجمعات : المنظمات التى تحارب التفرقة العنصرية.

- مجموعات الضغط الدائمة والتى لها مصالح مادية وفى نفس الوقت لها أهدافها المعنوية، مثل النقابات الفئوية التى تسعى إلى تحسين الفئة التى تمثلها، والارتفاع بمستواها المعيشى وتقديم مساعدات وخدمات، وقد يكون لها أيضاً أهداف علمية أو أدبية.

- مجموعات الضغط المؤقتة التى تباشر ضغوطاً مؤقتة، وتكون قد تكونت لتحقيق عملية معينة أو الوصول إلى هدف ثابت لا تتعداه إلى غيره، ويدخل فى هذه الطائفة الجماعات التى تسعى إلى التمهيد لعقد معاهدات السلام أو غيرها من الارتباطات الدولية.

- مجموعات لا تهدف إلى الربح Non - Profit Organization مثل منظمات حماية المستهلك من سلبيات السوق : كارتفاع الأسعار، والغش التجارى، ورداءة التصنيع والتغليف.

- مجموعات تهتم بالقيم المعنوية والعقائد، مثل الهيئات الدينية الدولية.

- منظمات ترتكز على وجود خصائص مشتركة لدى أعضائها بصفة دائمة كالمنتجين والعمال والمحاربين القدماء.

- تجمعات أساسها المواقف الفكرية أو الأدبية التى يعتنقها الأعضاء بملء حريتهم، كمحاربة عقوبة الإعدام ، والدفاع عن حقوق الطفل.

توجد تجمعات عديدة تستمد قوتها وقدرتها على التدخل والنفاذ إلى مراكز اتخاذ القرار الحكومى / أو الدولى من كيانها الذاتى ولا تعتمد إلا على نفسها وتعتبر مسئولة فقط أمام أعضائها. ومثل هذه المجموعات تتمتع بقدرة ذاتية على الحركة، وحرية فى وضع أهدافها واتخاذ قراراتها ويمكن أن يطلق عليها صفة الأهلية المستقلة، مثل (غرفة التجارة الدولية) . بينما توجد تجمعات أخرى مرتبطة بمراكز معينة تمدها بالقدرة على التحرك، وفيها تعود الفوائد أو العوائد التى تجنيها من وراء تدخلها وتأثيرها إلى تلك المراكز التى تتبناها، ومثل هذه التجمعات تتلقى غالباً معونات مالية بطرق غير ظاهرة من المراكز الرئيسية التى تحركها. تأخذ هذه التجمعات صفة الأهلية التبعية. تتخفى كثيراً من الجمعيات أو المنظمات التى ليس لها صفة الربح وراء منظمات تسعى إلى المكاسب المادية. أيضاً تتوارى العديد من المنظمات التى لها سمة اقتصادية/ اجتماعية / سياسية / دولية، وراء منظمات محلية أو هيئات استشارية أو مؤسسات وطنية، وذلك ردءاً للشبهات ومنعاً للشائعات،

والأوقاويل التى قد تثار مثل: التدخل الأجنبى/ ضغوط القوى المعادية/ الخيانة والجاسوسية/ . . إلخ . تعمد هذه التجمعات / المنظمات/ الهيئات/ المؤسسات، أو أياً كان اسمها إلى استغلال الرأى العام ، ومن خلال ذلك تمارس نشاطها والسعى فى تعميق نفاذها وتشعب نفوذها لدى الهيئات الحاكمة.

عودة للهيئات الدولية، فإن أهم وأقوى المنظمات الرسمية، هى منظمة الأمم المتحدة United Nations . كان من نتائج الحرب العالمية الثانية إحداث تغيرات فى ميزان القوى لدول العالم، وتحالفات جديدة بين دول لها أيدولوجيات مختلفة، فحاربت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بجانب الاتحاد السوفيتى، والصين ضد ألمانيا وإيطاليا واليابان، وخرجت الولايات المتحدة من عزلتها لتحل محل مستعمر تقليدى مثل بريطانيا وفرنسا، وانتهت الحرب بخروج ألمانيا واليابان من سباق التسليح وبناء القوة العسكرية، بالرغم من مشاركتهما فى السباق الاقتصادى الذى تلى الحرب وتفوقتا فيه.

فى سبتمبر ١٩٤٣ وافق مجلس النواب الأمريكى على مشروع مقدم من وليام فولبرايت لإنشاء نظام جديد لحفظ السلم والأمن الدوليين، وفى منتصف ١٩٤٤ بدأت المشاورات الخاصة بإنشاء منظمة دولية جديدة تحل محل عصبة الأمم، كما جرت مباحثات فى برايتون وودز لإنشاء صندوق النقد الدولى والبنك الدولى فى يوليو ١٩٤٤ ، وتعاقبت الاجتماعات والمشاورات حتى يتم أخذ قرار إنشاء منظمة الأمم المتحدة فى مؤتمر سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٥ ، ثم يعقد أول اجتماعات «منظمة الأمم المتحدة» فى يناير ١٩٤٦ بمدينة لندن، وتم فى هذا الاجتماع الموافقة على أن تصبح نيويورك مقراً دائماً للمنظمة.

يتكون ميثاق الأمم المتحدة من ديباجة قصيرة ومائة وإحدى عشرة مادة، بالإضافة إلى النظام الأساسى لمحكمة العدل الدولية. تحتوى هذه المواد على الغرض من إنشاء منظمة الأمم المتحدة ومبادئها وآليات تحقيق أهدافها وقواعد التصويت لها.

حددت المادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة الأهداف التالية:

١ - حفظ السلام والأمن الدوليين.

٢ - إنماء العلاقات الودية بين الأمم.

٣ - تحقيق التعاون الدولى فى الميادين الأخرى.

٤ - تنسيق الأنشطة الدولية وتوجيهها نحو خدمة أهداف المنظمة.

نصت المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة على المبادئ التى يجب أن تلتزم بها الدول الأعضاء وهى:

١ - مبدأ المساواة السيادية بين الدول الأعضاء.

٢ - تنفيذ الالتزامات بحسن نية.

٣ - حل المنازعات الدولية بالطرق السلمية.

٤ - تحريم استخدام القوة أو التهديد بها فى العلاقات الدولية.

أقيم فى يونيو ١٩٩٣ بمدينة فينا مؤتمر عالمى لحقوق الإنسان تحت إشراف الأمم المتحدة حضره ممثلون من ١٧٢ دولة، ومراقبين من ٩٥ منظمة وهيئة ومؤسسة تعمل فى مجال حقوق الإنسان، وجاء هذا المؤتمر فى أعقاب سقوط النظم الشيوعية الأوروبية، ولكن هل حصل الإنسان على حقوقه، وهل تمت محاكمة مجرمى الحروب، وهل منعت المنظمة وجود الديكتاتورية فى الدول المختلفة. قد تكون المنظمة قد قامت ببعض الأعمال الإيجابية مثل الإشراف على الانتخابات فى بعض الدول التى تنقصها الحرية والديمقراطية ، ومثل توفير الحماية العسكرية لقوافل الإغاثة فى الدول التى تصارعت فى ظل وجود منظمة قامت لمنع الصراعات ليسود السلام، ومثل حماية الأقليات فى بعض الدول التى يعيش فيها أقليات قومية ، ولكن يظل معيار القوة والمنفعة الشخصية سارى بالرغم من التظاهر بعكس ذلك.

كتب جان مينو فى المرجع السابق عن قوة رؤوس الأموال خاصة الأمريكية وتدخلها بطريقة مكشوفة فى الشئون السياسية للجمهوريات الصغيرة فى أمريكا. حصر الكاتب العوامل التى يمكن أن تحدد طبيعة ومدى التدخل فى أمور ثلاثة:

العامل الأول : موقف القوة التى تمارس الضغط ومدى قدرتها.

العامل الثانى : القدرة على المقاومة.

العامل الثالث : حالة العلاقات الدولية فيما يتعلق بالرأى العام العالمى.

شرح الكاتب العامل الأول فى أن المجموعة الدولية لا يمكنها التأثير المباشر على أي دولة ما لم تجد فى هذه الدولة من يعتمد عليه فى التكلم باسمها وما تتخذه من وسيلة للتدخل والنفاذ. لذلك فإن المجموعات الدولية غير الحكومية من هيئات ومؤسسات تجارية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية تنشىء لها فروعاً أو وكالات أو حتى مراسلين أو مبشرين فى الدول المختلفة. كما أسرد الكاتب على أن مثل هذه الهيئات لها دور فعال فى مساندة المجموعات الأصلية المستوطنة فى هذه البلاد مثل الأمريكان من أصل إيرلندى والذين يدعون إلى استقلال إيرلندا ، ومثل الأمريكان اليهود المنتشرين فى القارة الأمريكية والمهتمين بحماية أمن إسرائيل. قد تلجأ احدى هذه المجموعات إلى اتخاذ موقف عدائى إزاء دولة من الدول تمهيداً لممارسة ضغطها فيما بعد . تستخدم المقاطعة التجارية كوسيلة من وسائل الضغط ضد الأفراد أو ضد الحكومات. والمقاطعة فى العلوم الاقتصادية هى فن منع الغير من العمل. قد تستخدم المقاطعة فى النطاق الوطنى كإجراء جزائى ضد أحد التجار أو إجراء سياسى ضد عملية معينة، أما على الصعيد الدولى فهى قطع العلاقات التجارية مع دولة أجنبية أو عدم التعامل مع مواطنى هذه الدولة، وقد لجأت الدول العربية إلى هذه السياسة فى صراعها مع إسرائيل. قد تبالغ المجموعات الدولية فى تقدير جدوى الوسائل التى تملكها لممارسة ضغوطها، ومثال على ذلك ما حدث عند تأميم قناة السويس، فقد اعتقدت الشركات الأجنبية التى كانت تدير القناة أن سحب المرشدين البحريين الأجانب سيوقف العمل فى قناة السويس، ولكن ظلت قناة السويس مفتوحة أمام السفن الدولية حيث حل المرشدون المصريون بكفاءة محل المرشدون الأجانب.

أما بالنسبة للعامل الثانى الذى يحدد طبيعة ومدى التدخل فهو القدرة على المقاومة، فقد كتب جان مينو فى المرجع المشار إليه :« يتضمن بحث هذا الموضوع علاج الناحية الشخصية والخلقية لأفراد الهيئة الحاكمة . . أو بعبارة أكثر بساطة وأوفر

صراحة أن متانة الخلق والتمسك بمبادئ الشرف تلعب دوراً هاماً فى تقدير مدى صلابة أفراد الهيئة الحاكمة ورجال السياسة والموظفين ، لأن ضمائرهم لو كانت للبيع بالرشوة لأصبح من الميسور التأثير على الحكومة ولاسيما فيما يتعلق بالأمور التى تسعى إليها مجموعات رجال المال والتجارة والشئون الاقتصادية بوجه عام. ومع هذا يمكن القول بأن عدد قليلاً جداً من الدول يخلو من هذا العيب الخلقى المهين! إذ أن السواد الأعظم من كبار رجال الدولة يرون فى مناصبهم وسيلة لجمع ثروات طائلة». نوه الكاتب إلى أن الرشوة كانت منتشرة فى بعض الدول الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكن تغيرت الصورة بعد صدور عدد من القرارات الحاسمة لمحاربة الفساد.

أصبح الرأى العام فى العصر الحديث قوة لا يستهان بها ، خاصة بعد انتشار وسائل الإعلام، وتنوع أفكار الإعلان، وتطور تكنولوجيا الاتصالات بدخول الأقمار الصناعية فى العقود القليلة الماضية مجال الإعلام. تتضمن خطة التأثير على الرأى العام لتمرير مشروع ما ، أو قبول موضوع ما، على أربعة عناصر رئيسية وهى:

- تجميع المتعاطفين للموضوع.
- تعبئة المتعاطفين مع الموضوع.
- إقناع غير المكترثين بوجهة نظر قوى الضغط.
- العمل على أن يقف المعادون للمشروع / الموضوع موقفاً حيادياً منه.

أصبحت الدول وبعض القوى الخاصة - فى العصر الحديث - تتعاون أحياناً أو تختلف وتتصارع أحياناً أخرى بغية التأثير على الرأى العام. لقد طغت النزعة المادية/ التجارية على ثقافة شعوب الدول الصناعية المتقدمة، وحذت حذوها بعد ذلك بعض الدول النامية بضغط من ذوى المصالح، والمستفيدين من المشروعات التجارية، أو الطامعين فى السلطة والنفوذ.

تعددت وسائل التأثير على الرأى العام من عقد اجتماعات ، وهى قد تكون «مفتوحة» تدور فيها المناقشات بصفة علنية، أو اجتماعات مغلقة، يقتصر فيه الحاضرون على المعنين بالاجتماع. وسيلة أخرى وهى المؤتمرات التى تأخذ اسماء متعددة وأشكال مختلفة، فهى قد تكون ندوة، أو لقاء ، أو دورة، أو جلسة، أو «مؤتمر المائدة المستديرة» ، أو غيرها من الأسماء. تتميز المؤتمرات بكمية البيانات الى يمكن الحصول عليها أو نشرها فى أوراق العمل الملقاة. تعتبر الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى من الأساليب المستخدمة للتأثير على الرأى العام الجماعى، ولكنها وسائل قد تكون باهظة التكاليف إذا استمر الإعلان لمدد طويلة حتى يكون التأثير ذا جدوى. أيضاً يوجد النشرات الدورية، ويستخدم الآن الإنترنت كوسيلة فعالة وغير مكلفة . ليس من السهل تحديد مدى التأثير على الرأى العام لعدم كفاية المقاييس التى تحدد بشكل موثوق فيه «كينونة» الرأى العام، أو «تطوره» أو اتجاهه الذى قد يتغير على المدى القصير. إن اختلاف الثقافات ، والعادات والتقاليد من دولة وأخرى، بل اختلاف الثقافات داخل البلد الواحدة - مثل بلاد المهجر - قد يضعف التأثير على الرأى العام الجماعى، وتشكل أحياناً عقبات قد لا يمكن تذليلها، حيث أن الدعاية الواحدة قد تكون إيجابية لدى ثقافة ما ، وسلبية لدى ثقافة أخرى.

كمثال لإحدى الحالات الهامة التى كان للرأى العام فيها أهمية مؤثرة فى الدول الغربية، مشكلة تجار السلاح، أو تجار الموت كما أسمتها الصحف فى ذلك الوقت. والقصة تبدأ بحملة قوية وعارمة ضد مصانع الأسلحة والذخائر قبل الحرب العالمية الثانية، واشتدت الحملة بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وقام أصحاب المصانع الحربية بحملات مضادة ، فاشتروا ضمائر عدد من الصحف وأثاروا النزعات الوطنية، كما تمكنوا من شراء بعض الأحزاب السياسية. دفع أصحاب المصانع الحربية أموال طائلة فى حملتهم المضادة، ولكن لم ينجحوا فى التأثير على الرأى العام، لأن الشعوب التى ذاقت ويلات الحرب كانت لديها دافع الكراهية نحو تجار السلاح وأصحاب المصانع الحربية. ولكن بالرغم من استنكار الرأى العام وكراهيته لتجار الموت، لم تنته الحروب ، ولم يتوقف الصراع، ولم يتحقق السلام ولن

يتحقق، ما دام يوجد الاختلاف والتباين والتضاد فى النفوس : من قوى وضعيف، ومن خانع ومستبد ، من سيد متكبر وعبد ذليل، ومن طاغية ومرائى، ومن ديكتاتور ومستسلم.

تسائل جون مينو عن تعبير «الضمير العالمى» هل هو مجرد تعبير أدبى؟ . . أم لباقة تكتيكية تستعمل للتأثير على الشعوب؟ . . تردد هذا التعبير كثيراً فى الخطابة السياسية، وترادف هذا التعبير مع تعبير آخر وهو «التفاهم الودى بين الطرفين». أصبح التفاوض فن وعلم حديث انتشر خاصة فى الدول المتقدمة لتفادى الأضرار السلبية للصراع، كما أصبحت المرونة عنصراً هاماً فى الإدارة الحديثة. قاومت شعوب العالم الثالث هذه الموجه، فثقافة هذا العالم ما زالت متمسكة بالتشدد ، ومتمسكة بالخطاب الثورى الرافض للحلول الوسط. ولكن قبل قدوم القرن الحادى والعشرين، وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وانحسار الشيوعية، وانهيار سور برلين، فإن الاتجاه العام فى دول خارج الدول المتقدمة أصبح يميل إلى الثقافة الغربية فيما يخص سياسة التفاوض والتفاهم ، وحلول الوسط، عدا بعض الصراعات الدينية أو القومية التى تغذيها أصحاب المصالح من داخل مجموعات الصراع، أو من بعض المجموعات، أو التنظيمات الخارجية ذات المصالح التجارية خاصة فى تجارة السلاح.

لم تكن السياسة الخارجية للدولة فى الماضى تتأثر بالأمور الداخلية، فالشئون الداخلية للبلد من بعد اجتماعى مثل وضع المرأة فى المجتمع وفرصتها فى العمل والمشاركة فى أنشطة الدولة المختلفة، وكذلك الأمور السياسية مثل تطبيق الديمقراطية وحرية التعبير والنشر والعقيدة، وأيضاً حرص الدولة على صحة مواطنيها وعدم تلوث البيئة، كلها أمور داخلية لم تكن تهم الدول الأخرى ولم تؤثر من بعيد أو قريب على أي علاقات ثنائية أو دولية، أو على أي مفاوضات تجرى بين دولة وأخرى. أما فى العقود القليلة الماضية فقد تداخلت السياسات الخارجية مع الشئون الداخلية وأصبحت من الأمور العادية مناقشة الأمور السابق ذكرها فى أي مفاوضات بين الدول ، خاصة إذا كانت المفاوضات تحوى جانب المعونات والمنح من الدول الاقتصادية الغنية مع دول العالم الثالث المتخلفة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. لم

يصبح من المستغرب أن تملى الدول المانحة بعض شروطها على الدول المتلقية لهذه المنح أو القروض أو المعونات العينية . لم تصبح القوة العسكرية فقط هى التى تفرض شروطها كما كان فى الماضى، ولكن تحولت القوة المالية وإغراء الاستثمار فى الدول الفقيرة من قوى الضغط والتأثير بغرض التغيير فى العصر الحديث . قد يثار سؤال فى هذا المجال: هل توجد النوايا الطيبة دائماً وراء الضغوط لإحداث التغيير فى البلاد المتخلفة ؟ . . بالطبع لا . فسياسة الضغط قد يبغى من ورائها الحصول على مكاسب من جوانب أخرى خافية أو علنية. فاتهام دولة ديكتاتورية بالفساد وبعدم تطبيق الديمقراطية ، وتقييد حرية المواطنين قد يفتح مجال لرجال المال والاقتصاد من الدول المانحة الغنية أن يحصلوا على شروط أفضل أو تسهيلات من الأجهزة الحاكمة للدولة الديكتاتورية، حتى يغضوا النظر عن تجاوزات الدولة المتلقية، والتغاضى عن فساد حكامها.

كتب جان مينو فى كتابه «مجموعات الضغوط الدولية» عن الجمعيات السرية التى قد تكون بديلاً لحزب انتهى وجوده الظاهرى لأسباب الاضطهاد السياسى أولسيطرة دولة أجنبية. من الجمعيات السرية التى نالت شهرة واسعة (الجمعية الماسونية) التى كان لها نفوذاً سياسياً كبيراً فى كثير من الدول الأوروبية، ثم امتد نشاطها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ذهب بعض المؤرخين إلى أن شرارة الثورة الفرنسية التى بدأت عام ١٧٨٩ كانت من نتاج مؤامرة ماسونية، بل ذهب البعض كما ورد فى المرجع السابق إلى أن الماسونية الدولية كانت هى المسئولة عن قيام الحرب العالمية الثانية. تعتبر المافيا التى تأسست فى جزيرة صقلية بإيطاليا من الجمعيات السرية التى بدأ نشاطها فى المجال السياسى، ثم تشعبت إلى عالم المال والجريمة . تكونت أيضاً فى جنوب الصين بعض الجمعيات السرية وامتد نشاطها إلى خارج الصين ليصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية بواسطة الصينين المهاجرين. كان للجمعيات السرية اليابانية أيضا دوراً رئيسياً فى بسط نفوذ اليابان على أجزاء كبيرة من قارة آسيا.

وفى نطاق الصناعة والزراعة والبترول والبرلمانات، تكونت تكتلات تستخدم منظومة القوى عادة لفرض السيطرة Domination . تظهر السيطرة فى نظام العلاقات الدولية عن طريق التأثير على الغير بصورة غير متكافئة وغير قابلة للرد. قد تستطيع الدول الصغيرة أن تحمى نفسها من محاولات الغزو المكشوف، أو الغزو العسكرى، لكنها قد تتعرض لخطر جامح من جراء عدم تساوى القوى فى المجال التجارى. لقد اختفت فى العقود الماضية السيطرة المباشرة أى الاحتلال، وحلت محلها السيطرة غير المباشرة عن طريق سيطرة رأس المال. حتى إذا تدخل الجانب العسكرى فإن تدخله يكون استراتيجياً لفترة محدودة من الزمن لتغيير وضع، وذلك مثل ما حدث فى نيكارجوا فى أمريكا اللاتينية، ومثل ما حدث فى العراق فى عام ٢٠٠٣. لم يعد الاستعمار القديم الذى عانى منه كثير من الدول الأفريقية والأسيوية والذى استمر لسنوات طويلة، له مكان فى العقود الأخيرة من الألفية الثانية. أصبح هذا النوع من الاستعمار مكلفاً للدول المستعمرة، وتم الاستعاضة عنه بزرع أعوان له فى مراكز صنع القرار.

إن حسابات القوة هى عملية أكثر تعقيداً مما يتوهمه المحللون السياسون. فإذا كان المنطق يتجه إلى فوز الأكثر قوة فى ساحة الصراع، فإن الواقع الفعلى يأخذنا إلى نتائج عكسية كما حل بالولايات المتحدة الأمريكية وهى قوى عظمى على أيدى قوة أقل وهى فيتنام. أيضاً يمكن ذكر ما حل ببريطانيا العظمى فى السبعينيات على أيدى قوى صغرى وهى دولة أيسلندا فيما عرف باسم «حرب الحيتان» فى شمال الأطلنطى. والخلاصة لا يوجد مقياس كامل لتقييم القوى ، ففى المجال العسكرى، توجد حرب العصابات التى قد لا تجارى فيها القوات العسكرية النظامية هذه الجماعات من الفدائيين أو الإرهابيين أو أياً كانت التسميات ، فالذى يدافع عن وطنه يتقبل التضحية والاستشهاد بعكس الغازى الذى يقاتل من أجل هدف واهٍ أو غير واضح. فى مفاهيم القوة قد تختلف القوة الكامنة أو القوة الخفية للدولة عن القوة الظاهرة، أو كما كتب بيتر تيلور فى المرجع السابق ذكره :« أن القوة الظاهرة هى ما يلمسه الجميع على ساحة الصراع أو القتال، إلا أن القوة الكامنة هى تلك الملكة الخفية الذكية التى بها يمكن لطرف ما أن يحقق أهدافه دون اللجوء إلى العنف أو الإكراه».

عدد تيلور أنماط من مفردات القوة، وأهمهم الموقع أو الشكل الهيكلى: (وهو ينجم مباشرة عن أداء الاقتصاد العالمى بوصفه نظاماً. ولنأخذ مثالاً هنا كلا من البرازيل وسويسرا. فعلى مستوى أغلب مؤشرات القوة سوف تبدو البرازيل أكثر قوة من سويسرا، فهى طبقاً لمقاييس موير تملك مساحة أكبر، وعدد سكان أضخم، وإنتاجاً أوفر من الصلب، وعدداً أكبر من الجنود، لكن هذا كله ليس إلا مقياساً يرتبط بحرب محتملة مع سويسرا، والبرازيل وسويسرا لم يدخلا أبداً فى حرب فيما بينهما، ومن غير المرجح كذلك أن يحدث ذلك فى المستقبل. أما فى الهيكل الترتيبى لمواقع الدول فى الاقتصاد العالمى، فإن سويسرا تعد دولة «مركز» بينما تعد البرازيل دولة «شبه أطراف» وعلى ذلك يمكن القول أن سويسرا، بحكم التعريف ، «تستغل» البرازيل، وذلك لأن الاقتصاد العالمى مهيكل بطريقة تعطى الأفضلية لسويسرا على حساب البرازيل. وليس على سويسرا أن تنخرط فى أي أفعال قوة معلنة خارج إطار علاقات المتاجرة «الطبيعية» لكى تفرض سيطرتها : فرجال البنوك السويسريون هم جزء من مجتمع البنك الدولى الفارض للشروط على البرازيل لإعادة جدولة ديونها. والشركات السويسرية متعددة القومية مثل شركة «نستلة» تشارك فى مشاريع مربحة تفيد فى النهاية حاملى الأسهم السويسريين. ومن ثم فالمسألة ببساطة أن أداء السوق العالمية، وعلاقة كل من سويسرا أو البرازيل بتلك السوق ، يكفلان الغلبة السويسرية والتدفق الناجم عن ذلك الفائض إلى سويسرا). والذى لم يذكره تيلور هو قوة الانتماء لثقافة تتميز بها الدول العظمى والتى لها ثقل فى منظومة القوى. إن سويسرا تنتمى إلى الثقافات الغربية، وبمزيد من التفصيل تمتد ثقافتها من تعدد اللغات المتداولة - ألمانية / فرنسية / إيطالية - فى سويسرا ، والتى تتحدث بها الدول الكبرى فى أوروبا. وإسرائيل تستمد جزء كبير من قوتها السياسية من انتمائها للثقافة الغربية والتى اكتسبتها من اليهود الذين هاجروا من الدول الأوروبية ومن الولايات المتحدة الأمريكية إلى إسرائيل، فأصبحت الدول الغربية تدعمها فى كل أو معظم المحافل الدولية.

ماذا حدث على ساحة السياسات الدولية فى العقود الأخيرة ؟ . . بالرغم من انتهاء الاستعمار بشكله القديم، وتحرر جميع الدول الأفريقية من المستعمر الأبيض، إلا أن الديكتاتور الوطنى لم يبرح القارة. لقد شهدت أفريقيا فى العقود الأخيرة مزيداً من الانهيار الاقتصادى، وكثير من الانقلابات العسكرية، والعديد من الحروب الأهلية، ومذابح عرقية فى الصومال، ورواندا، وبروندى، والكونغو برازفيل ، وسيراليون، وليبيريا، وجزر القمر، وساحل العاج. لقد رحل المستعمر الأوروبى عن القارة السوداء بفقرها وأمراضها وصراعاتها، لتكتمل ألوان لوحة القارة من بشرة سوداء، وغابات خضراء، وفيافى صفراء ، ومحيطات زرقاء، ودماء حمراء تناثرت على بقاع كثيرة من القارة السوداء.

فى العقود الأخيرة حدث أيضاً انتفاضات قوميات الأقلية فى دول عديدة مثل دول البلقان، وفى فلسطين، وفى بعض دول الاتحاد السوفيتى المنحل مثل الشيشان، وأكراد الشرق الأوسط فى العراق وتركيا، وتاميل الهند وسيريلانكا، وفى أندونيسيا، والفلبين، وتشاد ، وأنجولا ، وسيراليون ، وأثيوبيا، وجزر سولمون، وفيجى، وذلك لانتزاع حقوقهم المسلوبة، وطمعاً فى إنشاء دول خاصة بهم. أيضاً انفراط عقد الاتحاد السوفيتى فى العقد الأخير من الألفية الثانية، وتفكك دولة تشيكوسلوفاكيا إلى دوليتين (تشيك ، وسلوفاكيا) ، كما تفكك الاتحاد اليوغسلافى إلى ثلاث دول (الصرب، كرواتيا، البوسنة والهرسك). من جهة أخرى مقابلة للتفكك والانحلال اتحدت ألمانيا الغربية والشرقية فى دولة واحدة بسقوط سور برلين، كما ظهر الاتحاد الأوروبى فى نهاية التسعينات كقوة تنافس الولايات المتحدة الأمريكية سياسياً واقتصادياً ، لقد أعيد تشكيل دول العالم، ولن ينتهى التغيير فى المنظومة البشرية التى تتسم بالملل من الاستقرار، والنزوع إلى العدوانية. إن نظرة شاملة إلى التاريخ تؤكد لنا سمة المنظومة الكونية من اندثار حضارات وظهور حضارات جديدة، ومن تفاعلات قوى تؤدى إلى الحركة والتغيير، وان كان فى التغيير قتال، ودمار، وفناء لبعض من عناصر المنظومة - وهم البشر - ليستمر البعض الاخر فى إكمال مسيرة المنظومة التى لا يعلم نهايتها إلا الخالق.

توجد مدرستين فى تحليل أسباب الصراع بين الدول، تذهب الأولى إلى أن الصراع ناتج من غرائز عدوانية، ورغبة إنسانية فى السيطرة والهيمنة . ترى المدرسة الثانية أن الصراع هو نتيجة حتمية للتفاعل الآلى للأحداث، والتعاقب المحدد للأسباب. كتب فوكوياما فى كتاب «نهاية التاريخ وخاتم البشر» عن تغيير استخدام عناصر القوى للوصول لأقصى قوة ممكنة، فقد تتغير استراتيجية استخدام القوة على المدى القصير من أجل منفعة على المدى الطويل: (إن ثمة أمثلة لا تحصى لمجتمعات وأفراد يبدو أن الحافز لديهم ليس هو الرغبة فى زيادة قوتهم النسبية إلى أقصى حد ممكن. فالكولونيلات اليونانيون الذين سلموا السلطة للمدنين عام ١٩٤٧، أو الفئة العسكرية الحاكمة فى الأرجنتين التى تنحت عن الحكم عام ١٩٨٣ ، لا يمكن قبول تصويرهم على أنهم راغبون فى زيادة قوتهم إلى أقصى حد مستطاع. وقد كرست بريطانيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، جانباً كبيراً من طاقتها لاكتساب مستعمرات جديدة، خاصة فى أفريقيا فى حين بذلت مجهوداً مماثلاً عقب الحرب العالمية الثانية للتخلص من إمبراطوريتها، كذلك فإن تركيا كانت تحلم قبل الحرب العالمية الأولى بإمبراطورية تركية . . ثم إذا بها بتوجيه من أتاتوريك تتخلى عن مثل هذه الأهداف الإمبريالية ، وتتراجع إلى حدود دولتها القومية الصغيرة. فهل حالات الدول الساعية إلى تقليص حجمها هى أيضاً أمثلة للصراع على السلطة، كحالات الدول الساعية إلى تكبير حجمها عن طريق الغزو وزيادة القوة العسكرية؟ . . بعض الدول يسعى إلى الإبقاء على ما لديه من القوة بفضل سياسة الأمر الواقع . . ويسعى البعض الآخر إلى زيادتها بانتهاج سياسة إمبريالية . . وتسعى دول أخرى إلى إظهار قوتها باتباع سياسة المنزلة . . بريطانيا وتركيا دولتان ساعيتان إلى زيادة قوتهما إلى أقصى حد ممكن، لأنهما مضطرتان إلى دعم ذاتهما . فهما من خلال تقليص حجمها، تضمنان القوة فى المدى الطويل. وليست الدولة فى حاجة إلى زيادة قوتها إلى أقصى حد ممكن عن طريق التوسع الحربى والإقليمى. فهى قادرة على ذلك بفضل نموها الاقتصادى ، أو تصدرها النضال من أجل الحرية والديمقراطية. غير أنه مع مزيد من التأمل يتضح أن تعريف القوة على هذا النحو من الاتساع بحيث يشمل أهداف الدول الساعية إلى تقليص حجمها والساعية إلى الزيادة من حجمها عن

طريق العنف والعدوان، يفقد قيمته الوصفية والتحليلية . فمثل هذا التعريف لايساعدنا على فهم سبب دخول الأمم فى حروب. فالواضح أن بعض مظاهر الصراع على السلطة لا تهدد الغير بل تكون مفيدة بالتأكيد. فلو أننا فسرنا مثلاً بحث كوريا الجنوبية واليابان عن أسواق للتصدير على أنه مظهر للصراع على السلطة من جانبهما، فهو إذن ضرب من الصراع على السلطة يمكن للدولتين أن تستمرا فيه لخيرهما المشترك، ولخير المنطقة ككل حيث أن المنطقة ستحصل بفضل ذلك على سلع أرخص). إذا كانت القوة العسكرية على مر العصور - هى العنصر الأساسى للهيمنة ، فإن قوة المال والتجارة قد أصبحت هى العنصر الهام - فى الوقت الحالى - من أجل السيطرة وإثبات الذات على المستوى الفردى أو المستوى الدولى.

هل ستستمر الدول الديكتاتورية ، القائمة على القوة، ولا تطبق النظم الديمقراطية، وتكبت الحرية الفردية؟ . . أجاب على هذا السؤال الكاتب السياسى الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى المرجع السابق والذى نشر بعد تفكك الاتحاد السوفيتى وتحول النظم الشيوعية فى أوروبا الشرقية إلى الليبرالية والاقتصاد الحر: (الدولة فى الديمقوقراطيات الليبرالية ضعيفة بطبيعتها، حيث ان الإبقاء على مجال من الحريات الفردية يعنى فرض قيود ثقيلة على سلطانها. أما الأنظمة الشمولية، يمينية كانت أو يسارية ، فقد كانت تسعى إلى استخدام قوة الدولة للاعتداء على مجال الحريات الفردية والتحكم فيه من أجل تحقيق أهداف شتى ، كزيادة قوتها العسكرية ، أو إرساء دعائم نظام اجتماعى تسوده المساواة، أو تحقيق نمو اقتصادى سريع، بحيث يمكن تعويض الخسارة فى مجال الحرية الفردية بمكاسب على صعيد الأهداف القومية . أما الضعف الحاسم الذى أودى فى النهاية بهذه الأنظمة القوية فيتمثل فى المقام الأول فى الافتقار إلى الشرعية). أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تلوح أمام بعض دول الشرق الأوسط بعصا مساندة الإرهاب، وعدم تطبيق النظم الديمقراطية ، وأصبح أمام هذه الدول إما الامتثال للدولة التى تملك مقومات القوى، أو التعرض لضغوط تبدأ بالحصار الاقتصادى والسياسى، وتنتهى بالتدخل العسكرى. يعتقد قطاع كبير من الرأى العام فى دول الشرق الأوسط أن النيات ليست

دائماً خالصة لصالح شعوبهم، وإلا لتدخلت الدول الكبرى التى تملك نواصى القوى ، لتغيير الأوضاع السياسية فى الدول التى تطبق الديكتاتورية أو النظم الشمولية - منذ زمن، بدلاً من سياسة الابتزاز السياسى والاقتصادى والتهديد بالتدخل العسكرى.

إذا كانت مفاهيم الشرعية هي قيود قوية على السعى وراء القوة من أجل القوة كما كتب فوكوياما فى المرجع السابق، فإن الشرعية على حد تعبير الأديب ورئيس التشيك السابق فاكلاف هافيل تمثل (قوة الضعفاء) . إذا كان التاريخ قد أثبت أن شهوة الهيمنة لمن يملك القوة تتغلب على الشرعية، فإن كثيراً من دول الغرب تتغنى بالشرعية التى مازالت تمتهن قصداً أو غير قصد فى دول العالم المتخلف، ودول العالم المتحضر، فالنفعية مع قانون النسبية يحكمان تفسير الشرعية وتوجه الرأى العام أما بالتأييد أوبالنقد واللوم والتهديد.

حذر الكاتب الأمريكى صامويل هنتنجتون فى كتاب «صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمى» من تغيير نظام القوى العالمى بصعود بعض الدول الأسيوية خاصة الصين، واحتمال صراع مستقبلى بين الحضارة / الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية، مع دخول الصين فى الصراع ضد الغرب :(إن الثقافة والهويات الثقافية والتى هى على المستوى العام هويات حضارية، هى التى تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع فى عالم ما بعد الحرب الباردة . . ميزان القوى بين الحضارات يتغير: الغرب يتدهور فى تأثيره النسبى. الحضارات الآسيوية تبسط قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية . الدول الإسلامية تنفجر سكانياً مع ما ينتج عن ذلك من عدم استقرار بالنسبة للدول الإسلامية وجيرانها. . المجتمعات التى تشترك فى علاقات قربى ثقافية تتعاون معاً، الجهود المبذولة لتحويل المجتمعات من حضارة إلى أخرى فاشلة، الدول تتجمع حول دولة المركز أو دولة القيادة فى حضارتها. . مزاعم الغرب فى العالمية تضعه بشكل متزايد فى صراع مع الحضارات الأخرى وأخطرها مع الإسلام والصين . . إن بقاء الغرب يتوقف على الأمريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية، وعلى الغربيين عندما يقبلون حضارتهم كحضارة فريدة وليست عامة،

ويتحدون من أجل تحديدها والحفاظ عليها ضد التحديات القادمة من المجتمعات غير الغربية. إن تجنب حرب حضارات كونية يتوقف على قبول قادة العالم بالشخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية وتعاونهم للحفاظ عليها) . إذا كان كتاب «صدام الحضارات» قد صدر عام ١٩٩٦ ، فإن ما حدث من هجمة إرهابية دمرت «برجى التجارة العالمى» بمدينة نيويورك الأمريكية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، قد نبه الرأى العام الأمريكى إلى ما قصده هنتنجتون بصراع الحضارات. بدأت الولايات المتحدة فى وضع استراتيچيات جديدة لزيادة هيمنتها على دول العالم، وتكثيف امتلاكها لعناصر القوى من طاقة (بترول الشرق الأوسط، ودول الكومنولث المنشق من الاتحاد السوفيتى السابق) ، وتحديث ترسانتها العسكرية بعد استخدام القديم منها فى حرب العراق عام ٢٠٠٣ . استغلت الولايات المتحدة نجاح القضاء على نظام ديكتاتورى فى العراق بالتلويح بسوط محاربة الإرهاب، والدعوة إلى نشر النظم الديمقراطية فى الدول العربية / الإسلامية . من جهة أخرى لم نضع نحن العرب / الدول الإسلامية أي استراتيچية قصيرة المدى أو طويلة المدى لتحسين مركزنا فى منظومة القوى، بل على العكس فقد زدنا تفككاً وتنافرنا، مما أدى إلى مزيد من الضعف.

سبق هنتنجتون ، الأديب ورئيس التشيك السابق فاكلاف هافيل فى الإشارة إلى صراعات الثقافات: (الصراعات الثقافية تتزايد، وهى الآن أخطر مما كانت عليه فى أي وقت سابق فى التاريخ). المجتمعات التى اتحدت عن طريق الأيدلوجيات أو الظروف التاريخية وشكلت كيانات ودول جديدة مثل الاتحاد السوفيتى ، ويوغوسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا، تفتت وإنهار الكيان المصطنع والزائف الذى وحد هذه المجتمعات. من جهة أخرى اتحدت الألمانيتان - الغربية والشرقية - بعد انفصال قهرى تم بعد الحرب العالمية الثانية والتى انتهت بانتصار الحلفاء، تحولت أوروبا الغربية إلى قوة سياسية واقتصادية يحسب لها فى عالم اليوم خاصة مع بدء دخول دول أوروبا الشرقية مجموعة الاتحاد الأوروبى.

لقد نجح قيام الاتحاد الأوروبى لوجود ثقافة أوروبية / غربية / مسيحية مشتركة - قائمة على الاقتصاد الحر ، وعادات وتقاليد متشابهة ، وحرية العقيدة والديانة

-المبدأ العلمانى- بالرغم من انتماء معظم شعوب هذه الدول إلى الكنيستين: البروتستانتينية ، والكاثوليكية . خلاصة القول هو مقولة وزير الخارجية الأمريكى السابق هنرى كيسنجر :(النظام العالمى فى القرن الواحد والعشرين سيضم على الأقل ست قوى رئيسية : الولايات المتحدة ، أوروبا ، الصين ، اليابان، روسيا، وربما الهند، بالإضافة إلى عدد كبير من الدول متوسطة أو صغيرة الحجم). إذا دخلت الثقافة / الحضارة الإسلامية مضمار سباق منظومة القوى، فإن عالم القرن الواحد والعشرين قد يتشكل من سبع أو ثمان ثقافات.

فى مايو ٢٠٠٥ سيضم الاتحاد الأوروبى عشر دول جدد إلى الخمس عشرة دولة هم الأعضاء الحاليين فى النادى الأوروبى، من هؤلاء ثمانى دول شيوعية سابقة من أوروبا الشرقية ومنطقة البلطيق ، إضافة إلى جزيرة قبرص المجزأة وجزيرة مالطا الصغيرة الحجم والعدد، فى العام الماضى ساد التشاؤم المفكرين الاستراتيجين فى أوروبا ، فإذا كانت أوروبا الماضى قد ندرت نفسها على مدى نصف قرن للتغلب على الانقسام وإيجاد اتحاد سياسى واقتصادى متقارب ومتناغم ، فإن «أوروبا المستقبل» ستسير نحو الانقسام والانشقاق أكثر منه نحو الاتحاد ، إذا كانت أوروبا القديمة قد واجهت تحدى الدمج ، فعلى أوروبا الجديدة أن توفق بين المتنافرين والمتصارعين فى أمور شائكة مثل الأقليات ، والتباين فى دخل الفرد ، والهوية القومية. سيقوم فى المستقبل صراع مصغر من صدام الحضارات بعد أن تحرك مركز الاتحاد الأوروبى نحو الشرق الأوروبى بثقافتها المسيحية الأرثوذكسية ، مبتعدة عن الغرب الأوروبى بثقافتها المسيحية البروتستانتينية / الكاثوليكية . لقد ولت من النادى الأوروبى المتحد التجانس فى الثقافة والمستوى الاقتصادى المتقارب. يعتقد الأعضاء الحاليين فى الاتحاد الأوروبى أن دول مثل بولندا والمجر ودول البلطيق وجزيرتى قبرص ومالطا ، تسعى إلى جنى المكاسب الاقتصادية من انضمامهم إلى النادى الأوروبى قبل الاهتمام بخلق كيان أوروبى موحد ذو ثقافة واحدة، وكيان اقتصادى واجتماعى متجانس، وعليه إذا لم تتغلب أوروبا المستقبل على مشاكلها الداخلية قد تخرج من صراع منظومة القوى بعد أن يفتت قواها الصراع الداخلى.

إذا كان الكاتب الأمريكى صامويل هنتنجتون قد أشار فى كتابه «صدام الحضارات» إلى الصراع المحتمل بين الحضارة الغربية بقيادة الولايات المتحدة ، وبين الحضارة الصينية والحضارة الإسلامية، ودعم قوة الحضارة الصينية إلا أنه قد قام بالتنويه عن ضعف الحضارة الإسلامية وحلل هذا الضعف فى المقتطفات التالية : (بنية الولاء السياسى بين العرب وبين المسلمين كانت بشكل عام على العكس من تلك الموجودة فى الغرب الحديث. بالنسبة للغرب، كانت الدولة القومية هى قمة الولاء السياسى، ثم تتبعها ولاءات أضيق، أما الجماعات التى تتجاوز الدولة القومية - المجتمعات اللغوية أو الدينية أو الحضارات - فيكون ولاؤها والتزامها أقل . . أما بنية الولاء فى العالم الإسلامى على العكس من ذلك ، فإن البنيتين الأساسيتين والأصليتان والمستمرتان كانتا هما الأسرة والعشيرة والقبيلة من جانب، ووحدات الثقافةوالدين والامبراطورية على نطاق أوسع . . الإسلام مقسم بين مراكز قوى متنافسة، يحاول كل منها أن يفيد من توحده الإسلامى بالأمة لكى يحقق بذلك تماسكاً إسلامياً تحت قيادته. هذه المنافسة تدور بين الأنظمة المستقرة ومنظماتها من ناحية أخرى. . إن غياب دولة مركز إسلامية عامل مساعد وأساسى على الصراعات الخارجية والداخلية المستمرة التى تميز الإسلام ، وعلى الوعى دون تماسك ، كما أنه مصدر ضعف بالنسبة للإسلام ومصدر تهديد للحضارات الأخرى . . إن دولة مركز إسلامية يجب أن يكون لديها موارد اقتصادية وقوة عسكرية وكفاءة تنظيمية وهوية إسلامية والتزام بأن تكون قيادة سياسية ودينية للأمة . وهناك ست دول يتردد ذكرها من وقت لآخر كزعامات ممكنة للحضارة الإسلامية ،وفى الوقت الحالى لا تتوفر لأى منها الشروط اللازمة لكى تجعل منها دول مركز ذات فعالية).

عدَّد الكاتب الدول الإسلامية الست ، وهى أندونيسيا ولكن يضعفها - كما نوه الكاتب - أن إسلامها تشكيلة متنوعة من جنوب شرق أسيا، وشعبها وثقافتها خليط من مؤثرات وأصول إسلامية وهندوسية وصينية ومسيحية . ثانى الدول هى مصر كبلد عربى، تعدادها السكانى كبير، وموقعها المركزى والاستراتيجى والجغرافى مهم فى الشرق الأوسط ، إلا أنها دولة فقيرة، تعتمد اقتصادياً على الولايات المتحدة،

وعلى المؤسسات الدولية التى يتحكم فيها الغرب والدول العربية النفطية . ثالث الدول إيران بحجمها وعدد سكانها وموارد نفطها، يمكن أن تؤهل لأن تكون دولة مركز إسلامية - إلا أن إيران - كما يقول الكاتب - تدين بالمذهب الشيعى بينما ٩٠٪ من مسلمى العالم سنية ، كما أن لغتها هى الفارسية وليست العربية، وأن العلاقات بين الفرس والعرب - تاريخياً - تتسم بالعداء ، تجىء باكستان فى المرتبة الرابعة بحجمها وعدد سكانها وقدراتها العسكرية، إلا أن باكستان فقيرة نسبياً وتعانى من انقسامات اثنية وإقليمية ، ولها سجل من عدم الاستقرار السياسى، كما أن تركيزها ينصب على مشكلاتها الأمنية مع الهند. أما بالنسبة للملكة العربية السعودية - مهد الإسلام - والتى لديها أعلى احتياطات نفط فى العالم، وبالتالى قوة ونفوذ مالى، إلا أن قلة عدد سكانها النسبى وعدم حصانتها جغرافياً يجعلانها - كما ذهب الكاتب - تعتمد على الغرب من أجل أمنها. أخيراً يصل الكاتب إلى تركيا بتاريخها الحضارى وعدد سكانها الكبير - نسبياً - والمستوى المتوسط من النمو الاقتصادى، والتماسك الوطنى والتقاليد العسكرية والكفاءة - مما يمكن أن يؤهلها لأن تصبح دولة مركز ، إلا أن التزامها بالعلمانية وميلها للثقافة الغربية قد أبعدها عن تبوء زعامة العالم الإسلامى.

يصنف محللو نظم الاقتصاد السياسى دول العالم فى ثلاثة أقسام : الأول هو ما يسمى «القلب» ، وهى الدولة التى تملك أكبر قوة عسكرية، وتستحوذ على أكفأ اقتصاديات إنتاجية، فهى دولة تسيّر سياسات معظم الدول الأخرى - الأقل قوة - وفقاً لإرادتها واتجاهاتها التى تعود عليها بالنفع والفائدة. يعتمد الإنتاج فى دول القلب على رأس مال مكثف وعمال مهرة يتقاضون أجوراً مرتفعة ، وتملك أقوى منشآت عسكرية، واستثمارات رأسمالية فى دول أخرى تستطيع من خلالها النفاذ إلى أصحاب القرار. أم القسم الثانى فيسمى «المحيط» وتتألف من دول ضعيفة اقتصادياً ، وعسكرياً، وتعتمد اقتصادياتها إلى حد كبير على اقتصاديات دول القلب التى ترتبط بها برباط وثيق. تجىء إلى القسم الثالث دول «شبه المحيط» التى تقوم باستغلال دول المحيط، ولكن فى نفس الوقت تدين بالولاء لدول «القلب» بدور

صراع دائم وسباق مستمر بين دول «شبه المحيط» - التى عادة ما تتمتع بمستوى اقتصادى وعسكرى متوسط - من أجل الارتقاء بالعلو ، ومحاولة أن تصبح دول «قلب» ، وان تبعد عن منطقة دول «شبه المحيط». إنها لعبة الأمم التى تلعب فيها القوى العسكرية والاقتصادية دوراً هاماً ، مساندة لقوة النفوذ السياسى ، محاولة الهيمنة والسيطرة من أجل الحصول على أكبر قدر من المنافع.

تظهر فاعليات القوة على الساحة السياسية كانعكاس مباشر لقدرة الدولة على ممارسة نشاطها داخل النظام الدولى بما يحقق مصالحها المادية المباشرة. كتب بيتر تيلور أستاذ الجغرافيا السياسية : (يلاحظ بوجه عام أن دول المركز تأخذ فى سياساتها بالأسلوب الليبرالى ، بالنظر إلى قوتها فهى مبنية أساساً على تفوقها الاقتصادى - وقد كان السبق فى هذا لهولندا فى القرن السابع عشر ، على رغم أنها آنذاك كانت فيدرالية ضعيفة مؤلفة من كونتيات عدة ، لا تؤهلها لأن تحتسب ضمن الدول العظمى. ثم ظهرت بريطانيا والولايات المتجدة تباعاً لتصبحا فى مقدمة الدول ليبرالية المذهب، التى تسمى بدول السيادة. أما دول أشباه الأطراف فهى فى أغلب الحالات دول سلطوية الحكم، وقد تبدو على السطح دولاً قوية، من مثال ذلك الملكيات المستبدة التى زامنت النظام الاقتصادى العالمى فى مراحله الباكرة، وصولاً إلى نظم الحكم الغاشية فى ثلاثينيات القرن العشرين، والاستبدادية العسكرية فى أمريكا اللاتينية فى سبعينيات القرن نفسه، ثم الأنظمة الشيوعية حتى سنة ١٩٨٩/ ١٩٩٠). أكد الكاتب على تأثير القوة الاقتصادية فى مقابل القوة العسكرية، والنفوذ السياسى ، وأعطى مثلاً بالنجاح الاقتصادى المرموق الذى أصابته كل من اليابان وألمانيا فى أعقاب هزيمتهما العسكرية فى الحرب العالمية الثانية . إن كلاً من اليابان وألمانيا قد أفادتا من هزيمتهما العسكرية بتوفير ثروات هائلة كانت تبدد فى الإنفاق على الترسانة العسكرية، وتوجيه هذه الثروات لإنعاش اقتصاد بلديهما. إن ما يسميه محللى النظم «هندسة القوة» أو «منظومة القوى» ينطوى على شبكة متصلة ومتفاعلة، من عناصر مختلفة للقوى تعمل فى ميادين مختلفة فالمنظور السياسى

والقوى الاقتصادية والعسكرية وخلافه من عناصر قوى أخرى تؤثر وتتأثر بعضها بالبعض داخل إطار الصراع.

كانت المملكة المتحدة - بريطانيا العظمى - هى القوة المهيمنة قبيل الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وكانت ألمانيا هى القوة المتحدية . بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تفوقت الولايات المتحدة الأمريكية على كل من بريطانيا وألمانيا فى ميدان الإنتاج الصناعى والعسكرى وأصبحت تملك أكبر ناتج قومى. كان الاتحاد السوفيتى هو القوة المتحدية فى المجال العسكرى دون المجال الاقتصادى والمالى، وانقسم العالم إلى معسكرين وتحالفين ، الأول هو المعسكر الغربى وحلف الأطلنطى بقيادة الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية ، والثانى المعسكر الشرقى وحلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية. انقسمت دول العالم الثالث إلى المعسكرين، مع تمسك بعض الدول بسياسة الحياد . . ظاهرياً لا فعلياً . . فى العقد الأخير من القرن الماضى وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى وخروج دول أوروبا الشرقية من ثوب الاشتراكية أصبحت الولايات المتحدة هى الدولة المهيمنة ، تتربع وحدها على قمة دول العالم. ان تفشى الوهن فى القوة المهيمنة يخلق قوة أخرى منافسة ، ويبدو أن القوة الصاعدة عسكرياً واقتصادياً هى الصين. لقد أثبت الخلاف بين الولايات المتحدة من جهة ومن ألمانيا وفرنسا من جهة أخرى أثناء حرب العراق عام ٢٠٠٣ تباعد الثقافة الأمريكية عن الثقافة الأوروبية والتى نعتها الولايات المتحدة بأوروبا القديمة. ستزداد الفجوة الثقافية مستقبلاً نتيجة لتزايد تأثير ثقافة الأجناس الأخرى - الأسبانى والأفريقى - فى تركيبة المزيج الثقافى الأمريكى النابع من الثقافة الأوروبية منذ حوالى ثلاث قرون من الزمان . ان تباعد الثقافتين الأوروبية والأمريكية ستكون فى صالح الصين المتماسكة حتى الآن ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً.

بزغت شمس الألفية الثالثة بتبوء الولايات المتحدة الأمريكية عرش محصلة القوى بالنسبة لدول العالم بعد إنهيار الإتحاد السوفيتى وتخاذل روسيا ، واتجاه دول أوروبا القديمة - كما أطلق عليهم الأمريكان عام ٢٠٠٣ أثناء حرب العراق - إلى الحلول الوسطى والاعتدال . . من المؤكد أن ذكرى حربين عالميتين مرت بهما أوروبا

فى القرن العشرين، وذكرى الدمار الشامل وموت الملايين من البشر قد أثر على نفسية الشعب الأوروبى ، مما أدى إلى كراهية الحروب وتبعاتها. لقد أثر التغيير فى ميزان القوى سلبياً على دول العالم الضعيفة وفقاً لمقولة وزير الخارجية الأمريكى السابق هنرى كسينجر :(إذا تمتعت قوة ما بالأمان المطلق فسيسفر ذلك عن تعرض جميع القوى للخطر). لقد تزعمتا فرنسا وألمانيا معارضة غزو أمريكا وبريطانيا للعراق، بالرغم من معارضتهما للنظام العراقى الديكتاتورى الذى كان يحكم العراق فى ذلك الوقت، ودار صراع فى أروقة أجهزة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وعن طريق وسائل الإعلام. تفاعلت شعوب الدول المختلفة مع الأحداث الجارية، من مؤيد ومعارض. . وتم الغزو دون مظلة الأمم المتحدة ، لثقة الولايات المتحدة بأنها أصبحت القوة الوحيدة القادرة على القيادة فى عالم يحكمه منظومة القوى.

كتب فوكاياما عن الصراع بين دول الحضارة الغربية ودول العالم الثالث، فيما أسماه صراع ما بعد التاريخ :(لا تزال سياسة القوة هى السائدة بين الدول التى لاتأخذ بالديمقراطية الليبرالية . وسيؤدى التأخر النسبى فى وصول التصنيع والقومية إلى العالم الثالث، إلى اختلاف حاد بين سلوك الكثير من دول العالم الثالث من جهة، وبين سلوك الديمقراطيات الصناعية من جهة أخرى، وسينقسم العالم فى المستقبل المرئى إلى شطر قد تخطى التاريخ، وشطر لا يزال غارقاً فى التاريخ. وفى عالم ما بعد التاريخ، سيكون الاقتصاد هو المحور الرئيسى للتفاعل بين الدول، فى حين تتضاءل أهمية القواعد العتيقة لسياسة القوة. . سيكون ثمة تنافس كبير فى المجال الاقتصادى ، ولكنه محدود فى المجال العسكرى . وسيظل عالم ما بعد التاريخ مقسماً إلى دول قومية، غير أن قومياته المستقلة ستكون قد تصالحت مع الليبرالية، وسيكون تعبيرها عن نفسها - وعلى نحو متزايد - فى مجال الحياة الخاصة وحدها. وفى هذه الأثناء ستكون العقلانية الاقتصادية سبباً فى تآكل مظاهر تقليدية عديدة للسيادة بقدر ما ستؤدى إلى توحيد الأسواق والإنتاج . . أما العالم التاريخى، فسيبقى فريسة لمختلف الصراعات الدينية والقومية والأيدلوجية على قدر ما قطعته البلاد المختلفة فيه من شوط فى سبيل التنمية ، وستظل القواعد العتيقة لسياسة القوة

قائمة فيه. فبلاد مثل العراق وليبيا ستظل تهاجم جيرانها وتخوض معارك دامية. وستظل الدولة القومية هى المحور الرئيسى للهوية السياسية فى العالم التاريخى) .

لقد توقع فوكاياما فى كتابه «نهاية التاريخ» والذى صدر عام ١٩٩٢ ، سياسات عدوانية من كل من العراق وليبيا، وجاء الواقع بالقضاء على العراق حرباً عام ٢٠٠٣، وتطويع ليبيا سلماً بعد ذلك بمدة ليست بطويلة، ثم بدأت مرحلة المناداة بنشر الديمقراطية والليبرالية، متيحين الفرص لمزيد من بؤر الصراع غير المتكافئ بين من يملك جميع عناصر القوة - الحضارة الغربية - وبين دول لا تملك إلا قوة اليأس، وقوة الدعاء ! نعم نحن فى حاجة إلى الديمقراطية والحرية، ولكن توجد طرق وسبل كثيرة غير فرض الإرادة للتغيير - ليس مجاله هذا الكتاب. لقد استطاعت القوة المهيمنة الأمريكية من تنفيذ استراتيجياتها بعد أن كون مفكريها ملامحها ، تاركين لنا التخبط وعدم الانسجام ، وإنعدام التوافق بين مفكرينا وقادتنا . لقد اتسعت الفجوة التى كان السبب فيها الثقافات الشرقية التى لم تبن على : تعدد الآراء، ووضوح الرؤية، واختلاف الفكر، والتصميم على الوصول إلى الهدف، والتخطيط لأجيال قادمة مطلوب منا أن نضحى من أجلها.